التَّلَقِّي الشَّبَابِيّ لِلشِّعرِ الجَاهِلِيّ

دراسة في العوائق الماثلة والطرائق المُثْلَى

إعداد الدكتور

محمود أبو سمرة عبد السلام أحمد

مدرس الأدب والنقد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة

جامعة الأزهر

التَّلَقِّي الشَّبَابِيّ لِلشِّعرِ الجَاهِلِيّ دراسة في العوائق الماثلة والطرائق المُثْلَى

محمود أبو سمرة عبد السلام أحمد
قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة ، جامعة الأزهر.
البريد الإلكتروني: mahmoudahmed.4@azhar.edu.eg

الملخـــص :

يـدور هـذا البحـث حـول تلقـي شـبابنا الـ صاعد لتراثنـا الشـعري لاسـيما الجـاهلي منـه؛ للتعـرف علـى مـا يعكـر صـفوَ ذلـك الواقـع مـن صـعاب وعوائـق ماثلـة، ومـا يجـب اتباعـه إزاء ذلـك مـن حلـول وطرائـق مُثلـى تجعـل مـن عمليـة التلقـي عمليـة بنـاءة وواعـدة؛ إذ إنـه مـن المعلـوم مـن الأدب بالضـرورة أن شـعر الجاهليـة هـو المرجعيـة اللغويـة، وبـدون تلقيـه كمـا يجـب تحـدث قطيعـة بـين الأمـة وم صدر هـدايتها. وقـد تحـدثت في البحـث عـن التعريـف بمفـردات العنـوان: (التلقـي الشـبابي- الشـعر الجـاهلي)، والمبحـث الأول: عوائق التلقي الـمَاثِلة. والمبحث الثاني: طرائق التلقي الـمُثْلَى.

الكلمات المفتاحية: دراسة، العوائق، التلقي، الشباب، الشعر الجاهلي، الطرائق.

Youthful Reception of Pre- Islamic Poetry

A Study of the Current Obstacles and Optimal Methods

By: Mohammed Abu Samrah Abdel- Sallam Ahmed
Department of Arabic Language and its Literature
Faculty of Islamic and Arabic Studies for Men in Cairo
Azhar University

Abstract

This research discusses the reception of our poetic heritage- especially that of the Pre- Islamic Era- by our emerging youth. The main objective of the research is to identify the current obstacles and difficulties that block the way before our youth, and it proposes some optimal methods which would help our youth remove such obstacles and difficulties. Similarly, the research is keen to make the process of reception constructive and promising. It is emphatically known in literature that Pre- Islamic poetry constitutes a linguistic referentiality. In addition, without receiving Pre- Islamic poetry properly, the nation would be separated from its source of inspiration. The research defines the major items of the topic such as youthful reception and Pre- Islamic Poetry. The first chapter handles the current obstacles whereas the second proposes optimal methods for ideal reception of such poetry. Finally, the conclusion sums up the findings of the research.

Keywords: obstacles, reception, youth, Pre- Islamic Poetry, methods.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمـــة

الحمد لله الذي خلق وعَلَّمَ، وهدى وأَكْرَم؛ وأصلي وأسلم على النبي الأميِّ الخاتم، الذي أُوْتِـي جَوَامِعَ الكَلِم، فَاستنارتْ بهديهِ الظُّلَم، ورُحِمَت بمبعثه الأُمم؛ أما بعدُ:

فمما لا ريب فيه أن ما يتلقاه الناشـئة في سِـنِيِّ شـبابهم من زاد أدبي وثقافي يَصـوغ للأمة هُويتها، ويحدد مكانتها، ويصنع واقعها، ويرسم مستقبلها؛ من أجل ذلك يلزمنا التوقف بالبحث والدرس عند واقع تلقي شبابنا الصاعد لتراثنا الشعري لاسيما الجاهلي منه؛ للتعرف على ما يعكر صفوَ ذلك الواقع من صـعاب وعوائق ماثلة، وما يجب اتباعه إزاء ذلك من حلول وطرائق مُثلى تجعل من عملية التلقي عملية بناءة وواعدة؛ إذ إنه من المعلوم من الأدب بالضـرورة أن شـعر الجاهلية هو المرجعية اللغوية للشرع، وبدون تلقيه كما يجب تحدث قطيعة بين الأمة ومصدر هدايتها؛ فَتَفْقِد سِرَّ خَيريتِها، وتذهب هُوِيَّتُها أَدراجَ الرياح؛ ومن المعلوم كذلك أن أدب الجاهلية هو أُسُّ أدبِ العربيةِ التَّليد، الذي مهما طال بأدبنا الأَمَد، ومهما تنازعته صـيحاتُ التطوير والتجديد فلن يبرح أرضَـهُ ولن يحيد؛ فلا يمكن للشباب تفهم أدب العرب في مختلف عصوره إلا بتفهم أدب الجاهلية، فهو المرجعية المعتمدة لأدبنا العربي حتى في أعنف صـيحات حداثته؛ لذا من أجاد قراءة ذلك الأدب فقد حِيْزَ له بيانُ العرب؛ وإن أدبًا تلكَ قيمتُه وذَاكَ سِرُّهُ، لهو جدير بأن يُعْتَنَى بكيفية تلقيه ووسائل دَرْسِه؛ كيما تستعيد الأمةُ عِزتها، وَتسترد كَرامَتَها، ويَغْدُو لهَا شَأْنٌ بَينَ الأُمَم.

من أجل ذلك عقدت العزم- مستعينا بالله- على كتابة هذا البحث تحت عنوان (التلقي الشـبابي للشـعر الجاهلي دراسـة نقدية)، وابتنيته على خطة مكونة من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، بيانها على النحو التالي:

- **المقدمة**: وفيها تعريف بموضوع البحث، وأهميته، وخطته، والمنهج المتبع في دراسته.
- **التمهيد**: وفيه تعريف بمفردات العنوان: (التلقي الشبابي- الشعر الجاهلي).
- **المبحث الأول**: عوائق التلقي المَاثِلة.

- **المبحث الثاني**: طرائق التلقي الـمُثْلَى.

- **الخاتمة**: وفيها تلخيص لأهم نتائج البحث.

دوافع البحث:

حفزني للبحث حول (التلقي الشبابي للشعر الجاهلي) محفزات عدة، بيانها على النحو التالي:

أولا- ما لمسته في أثناء تدريسي لمادة الأدب الجاهلي من عزوف الناشئة عن دراسة شعر الجاهلية، وصدودهم عن تفهم أجوائه، وعجزهم عن قراءة أبياته قراءة صحيحة معبرة، فعقدت العزم على دراسة الأسباب والعوائق الكامنة وراء ذلك العزوف، وإيجاد حلول ووسائل مساعدة؛ بغية تذليل صعابه، وتيسير درسه، وتمكين شبابنا من تلقيه بقوة وعزم يليقان بما له من مكانة وقيمة.

ثانيا- ما عاينته من تدريس الأدب الجاهلي بطرائق تقليدية لا تتماشى مع طبيعة محتواه، فشعر الجاهلية كمادة خام يحتاج إلى صُنَّاع مهرة، يستخرجون من كنوزه ما يَلذ ويعجب، ويثير ويطرب، وإذا كان الكيميائيون الذين يتعاملون مع مواد خطرة، وغير مستساغة يحتالون بكل حيلة ويسلكون كل طريق لجعل الدواء المصنع من تلك المواد المرة الخطرة دواء مستساغا بل وملذوذا لدى الأطفال، فما بال القائمين على رعاية الأدب وتغذية الناشئة بلبانه لا يكادون يجتهدون في كشف دروبه، وتذليل صعابه، وتقريب فوائده.

ثالثا- يقيني بأن نهوض أمتنا لن يكون إلا بتربية شبابنا على الكتاب والسنة، وهذا لا يتأتى على نحو أمثل إلا بالتلقي الجاد لشعر الجاهلية؛ إذ إنه المرجعية اللغوية المعتمدة للشرع، وفي الانفعال به تعزيز للهوية، واستعادة للعبقرية العربية التي سادت الدنيا لقرون.

رابعا- حبي الفياض لشعر الجاهلية بعدما أفدت من فطرية لغته، وفنيات شكله ومضمونه، الأمر الذي جعلني حريصا على الأخذ بيد الشباب إلى ذلك الينبوع الشعري الملهم؛ لكونهم صناع المستقبل الناهض المنشود، ولكون فترة الشباب هي الفترة المثلى للتلقي والتأديب؛ فمن شب على شيء شاب عليه.

منهج البحث:

اعتمدت في بحثي بشكلٍ أساسي على المنهج الاستقرائي والتحليلي لكونهما الأقدرَ من غيرهما على اِكْتِنَاهِ واقع التلقي، ورصد معوقاته الماثلة، واستكشاف طرائقه المثلى؛ على أن هذا لم يمنع من الاستئناس ببعض المناهج الأخرى عند الحاجة كالمنهج التاريخي، والنقدي.

هذا؛ وإني لآمل أن يكشف بحثي هذا عن أسباب أزمة تلقي الشباب للشعر الجاهلي وعن الحلول الممكنة والوسائل المثلى لمقاربته، وأن يكون حاديا نحو تلقيه والانتفاع به بدقة ومنهجية وإتقان.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب

الباحث

التمهيد

بداية أعرف بمفاهيم العنوان ومصطلحاته كمدخل وتوطئة للبحث، فأقول مستعينا بالله تعالى:

أولا- التلقي الشبابي

التلقي[1]: من أكثر المصطلحات ذيوعا في الدراسات النقدية والجمالية الحديثة، ونظرية التلقي نظرية ماثلة بقوة، ومتجذرة بعمق في تراثنا البلاغي والنقدي، وعملية التلقي هي جوهر عملية الإبداع، وعليها مدار الإبلاغ والإفادة والإمتاع.

فنظرية التلقي تعنى بتفهم أجواء تبليغ النص، وآليات استقباله، وتذليل عصيه، وتقريب بعيده، وسبر غوره، واستشفاف سره، وتعزيز التأثر به، والتفاعل معه، والإفادة منه؛ ولتلقي الشعر الجاهلي أركان أربعة: (مبدع، ونص، ووسيط ناقد، ومتلقٍ) أما المبدع فشعراؤه، وأما النص فقصائده ومقطعاته، وأما الوسيط فشراحه ونقاده، وأما المتلقي فقراؤه ودارسوه؛ وهذا البحث معنيٌّ بدراسة التلقي لدى فئة الشباب على وجه الخصوص.

وأقصد بدراسة (التلقي الشبابي) دراسةُ واقعِ استقبال الناشئة من الدارسين والباحثين للشعر الجاهلي، وتعاطيهم معه رغبة وعزوفا، ومدى استشعارهم لقيمته واستهانتهم بشأنه، ورصد العوائق الماثلة، والتنبيه إلى طرائق التبليغ المثلى.

ثانيا- الشعر الجاهلي

الشعر الجاهلي: هو ما تناقله الأثبات من الرواة، وأقره المعتبرون من المحققين من شعر قيل قبل الإسلام، وهو ديوان العرب، ومعدِن حكمتها، وسر عبقريتها الأكبر، المعبر عن آمالها وآلامها، الحافل بشئون حياتها سلما وحربا، خصبا وجدبا، فرحا وترحا، أودعوه المفاخر والمآثر، والأحساب والأنساب، وضَمَّنوه الوقائع والأحداث، وأودعوه الأطلال والذكريات، به كانت تُعْمَر المجالس،

(١) للاستزادة حول مفهوم نظرية التلقي، وأسسها، ومبادئها، ومنشئها حديثا، وجذورها الماثلة في تراثنا وفكرنا النقدي ينظر: حورية عيسى، الخطاب الأدبي في التراث العربي بين تقنية التبليغ وآلية التلقي، رسالة دكتوراه بجامعة وهران بالجزائر، كلية اللغات والآداب والفنون، ٢٠١٥- ٢٠١٦، ص ١١٥- ١٨٤.

وتُسَلُّ السخائم، وتُقضَى الحاجات، وكان له فيهم فعل السحر؛ فكم من جوادٍ بخَّله، وبخيلٍ سَخَّاه، وكم من شجاع وَسَمَه بالجبن، وجبانٍ ساوى به الليث، وكم من رفيع وضع، ووضيعٍ رفع؛ وهو ربيب البوادي، والبادية هي مهد الشعر ومهبطُ وَحْيِهِ، وهو نِتَاجُ الخُلَّص من شعراء العربية، أصحاب السلائق السوية، والقرائح الفتية، وهو المرجعية للفصيح الصحيح من لغة العرب.

" لا تزيد فيه القصـــائد الطوال عن مائة بيت إلا نادرًا، وأغلب قصـــائده تتراوح بين الثلاثين والأربعين "[1]؛ فهو لُمَحٌ وجوهر، تغني فيه الإشـــارة عن طول العبارة، فيه عبق التاريخ وفطرية اللغة، ومعدن الفن ونبع الجمال؛ يبعث في الأحفاد نخوة الأجداد، ويُلهم الناشئة وعيًا بالحياة لا ينفد.

(١) أ. د مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، الأدب العربي في العصر الجاهلي، ص١٢٩.

المبحث الأول

عوائق التلقي المَاثِلة

بالتأمل في عوائق تلقي الشباب للشعر الجاهلي يتضح أن ثمة عوائق تتعلق بالمتلقين من الناشئة، وأخرى تتعلق بعملية التبليغ والتوصيل، وثالثة تتعلق بالنص الشعري الجاهلي، وبيان ذلك فيما يلي:

المطلب الأول- عوائق تتعلق بالمنتج الشعري الجاهلي:

ثمة عوائق تحول دون التلقي المنشود للشعر الجاهلي تتعلق بنصوصه، وتتمثل في الآتي:

أولا: كثرة الإشكالات المتعلقة به

ثمة إشكالات كثر تتعلق بالشعر الجاهلي كإشكالات تعدد الرواية، واضطراب الرواة، وسقوط بعض الأبيات، واختلاف الشراح في تفسير بعض التراكيب، والجدل المثار حول بعض الظواهر والقضايا، والتضارب الحاصل في تحديد بعض الأنساب وأسامي الأماكن، والفجوة الزمنية التي تفصلنا عنه، والواقع البيئي المغاير وما يستدعيه ذلك من ثقافة واسعة، وضعف الاعتناء به مقارنة بغيره، وما إلى ذلك من الإشكالات التي تستهلك طاقة المتلقي وتحول دون الاستفادة القصوى من نبعه الفياض.

لذا من الأولى أن يُرجأ التصدي لمثل هذه الإشكالات إلى أن يتشرب وجدان الناشئة رحيق شعر الجاهلية الفطري، ويتنسموا عبيرَه البَرِّيَّ الآسِر، عندئذ يحملهم الشغف طوعًا لا كرهًا على التعمق والاستزادة، وتقوى أفهامهم لتقبل ذلك والانتفاع به.

ثانيا: اشتماله على بعض ما يَغْمُضُ فهمُه

يعاني دارس أدب الجاهلية- خاصة إذا كان مبتدئًا- صعوبة في فهم نصوصه مما قد يصيبه بالعزوف عنه والنفور منه، فالإنسان عدو لما يجهل؛ لذلك كثيرًا ما نرى ونسمع من يتندر ويسخر بأدب الجاهلية مردداً لبعض ألفاظه وعباراته بتقعر وازدراء كنوع من التشفي والانتصار للنفس العاجزة عن فهم ذلك الأدب، وعدم الفهم للأدب الجاهلي يؤدي لعدم انتفاع الدارس به، بل وعدم الاقتناع أصلًا بأهميته وجدواه.

ومنشأ الغموض في بعض شعر الجاهليين ليس مرده غموض الفِكَر وتعقيد المعاني؛ فأفكار الشعر الجاهلي واضحة بينة لا تحتاج إلى تدقيق نظر وإعمال فكر في تلقيها؛ فهي فطرية المنبع، قريبة المأخذ، دَرِبَ أصحابها على الإعراب عن أنفسهم بطلاقة، وتصوير ما يعتمل في صدورهم بعفوية واقتدار، وتحروا في كلامهم الهجوم على المقصود دون تطويل في تعليل أو تحليل؛ فمن أين تَغْمُض معانيهم، أو تستعصي على الفهم فِكَرُهم؟!.

وقد يتساءل البعض: فما بالنا لا نفقه كثيرًا مما يقوله شعراء الجاهلية؟

لعدم الفهم أسباب أُخَر غير صعوبة المعنى، واعتياص الفِكَرِ، كأن يشتمل شعرهم على أمثال لا نعرف موردها ومقصدها، أو أن يحوي أسماء لأشخاص أو أمكنة أو إشارات لِقصص وأحداث لا نعرف عنها شيئًا، أو أن" يُلم في بعض أبياته بحقائق علمية وكونية تستدعي ثقافة موسوعية غير متحققة لدى أكثر المتلقين "(١)؛ أما الفكرة في ذاتها فقريبة إلى الأفهام إذا زالت عقبات التلقي.

ومن مسببات صعوبة الفهم أيضا: غموض الكثير من ألفاظ الجاهلية وتراكيبها لبعد العهد بها، فمضي ما يزيد عن خمسة عشر قرنًا من الزمان كفيل بأن يحدث في اللغة تغيرات جذرية وتطورات هائلة تفصل بين حاضر اللغة وماضيها، ولولا أن مَنَّ الله على العربية وأهلها بنزول القرآن بها لصارت لغة الجاهليين في عداد اللغات الأثرية البائدة كاللاتينية والسنسيكريتية ونحو ذلك من اللغات القديمة التي اندثرت ولا يعرف أحفادها عنها اليوم إلا القليل النادر؛ وللتغلب على معضلة الغموض هذه لابد من تكوين حصيلة لغوية كافية، وذلك من خلال الحفظ المتفهم لبعض النصوص المختارة من عيون الأدب الجاهلي لاسيما المعلقات فإنها تمنح المتلقي قدرة عجيبة على فهم سائر الأدب الجاهلي؛ كذلك نتغلب على غموض لغة الأدب الجاهلي بالكشف عما يستغلق علينا فهمه من الألفاظ

(١) للاطلاع على نماذج لايتأتى فهمها للكثيرين لاشتمالها على حقائق علمية وكونية تستدعي ثقافة موسوعية ينظر: محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٩م، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة، ص ٧٠، ٧١/ وينظر كذلك: محمد ناجح محمد حسن، الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، بكلية الدراسات العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ص ١٩٦.

والتعبيرات في الشـــروح والمعاجم القديمة، ولكن ليكن من المعلوم أن المعاني المعجمية الحرفية قد تكون متعددة، وقد تكون غير معبرة عن المقصد الشعري، فلا تمنح المتلقي فهمًا شافيًا لما هو بصدده إلا بعد أن يعمل فكره في الدلالة العامة للســياق وما يقتضــيه ذلك الســياق من معنى، ومما يســهم في التغلب على معضــلة الغموض اللغوي للشــعر الجاهلي العمل الجاد من قبل القائمين على التعليم والتثقيف لنشــر الوعي اللغوي لدى الخاصــة والعامة بتداول الفصــحى في الصــحافة والإعلام وقنوات التواصل مع الجماهير.

أيضًا مما يصعب من فهم أدب الجاهلية أن الأدب بشكل عام والجاهلي منه بشكل خاص يقوم على الإيجاز في التعبير، ولا يُعنى بذكر التفاصــيل الغير هادفة؛ إذ البلاغة عند العرب الإيجاز؛ ومن ثَمَّ فإن ألفاظ النصــوص الأدبية الجاهلية وتراكيبها مشــحونة بالإيحاءات والمعاني؛ لأنها رُصِــفَتْ بدقة وعناية وتفنن، وَحَوَتْ من الدلالات والأسـرار" والفجوات البينية "[1] ما اسـتعصـى فهمه واسـتكماله قديمًا على بعض الجاهليين أنفسهم، فكيف بنا ونحن في القرن الواحد والعشرين؟!.

وللتغلب على معضــلة الإيجاز هذه لابد من التمرن على القراءة المتأنيَة البنَّاءة التي يشــارك فيها القارئُ مبدعَ النص باستنطاق أسراره، وتأمل خفاياه، والتساؤل عن مرماه، وكشف المسكوت عنه.

كذلك مما يجعل من فهم شـعر الجاهلية ونثرها أمرًا متعذرًا اختلاف طبيعة الواقع الذي نشـأ فيه ذلك الشعر عن واقعنا، فأدب الجاهلية بدويٌّ في معانيه وأفكاره، صحراوي في صوره وأخيلته، قديم في لغته وأســلوبه، مغاير لما نألف من تقاليد وعوائد؛ فهذا الاختلاف في طبيعة الواقع وأســلوب الحياة يؤدي أحيانا إلى عدم الفهم، نلمس هذا بوضــوح عندما نســافر إلى بلد غريب عنا في ثقافته ونتعرض لمواقف وســلوكيات غير مألوفة تصــيبنا بالذهول والارتباك؛ وللتغلب على أثر هذا الاختلاف يجب علينا الإلمام بطبيعة الواقع الجاهلي والتعرف على أجوائه البيئية والثقافية والســياســية والاجتماعية، وانعكاســها على حياة أهله، وللتعرف على ذلك طرق منها" القيام برحلة نحو البادية ولو لأيام، أو

(١) ينظر نماذج شعرية تشتمل على فجوات دلالية تحتاج في استكشافها إلى درب خبير: محمد ناجح محمد حسن، الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي، ص ١٩٦ وما بعدها.

مطالعة ما دَوَّنَهُ الرَّحَالَةُ الذين أقاموا في بادية العرب ودونوا لنا ما عايشوه هنالك ممزوجًا بانفعالاتهم وتعليقاتهم، وكذلك القراءة في كتب المؤرخين للعصر الجاهلي، وقراءة بعض ما كتب عن جغرافيا شبه الجزيرة العربية "[1]، ويا حبذا لو دعَّمنا ذلك بمشاهدة لبعض الأفلام الوثائقية الحية عن البادية العربية؛ فكل ذلك يعطينا صورة واضحة للواقع الجاهلي، وبالتالي يغدو لنا أدب ذلك الواقع أكثر ألفة وجلاء؛ فالأدب ربيب بيئته ومرآة عصره.

ثالثا: خفاء الترابط

كثيرًا ما تُلِمُّ قصائد الجاهليين- لاسيما طوالها- بموضوعات شتى، لا يلوح للنظرة العجلى وجه الترابط فيما بينها، وتبدو وكأنها مبعثرة مُفَكَّكَة الأوصال، ليس بينها من عُرَى الاتصال سوى الوزن والقافية؛ الأمر الذي حدا بالكثيرين إلى القول بأن الشعر الجاهلي مُفْتَقِدٌ للوحدة الموضوعية فضلًا عن الوحدة العضوية؛ وأن الوحدة فيه إنما هي وحدة البيت لا وحدة القصيدة؛ وعَزَوا ذلك إلى أن الشاعر الجاهلي" قلَّما يطيل المكث عند فكرة بعينها أو موضوع بعينه "[2]، مما جعل شعره أشبه ما يكون بالخيام المبعثرة في الصحراء، أو بالوثب العشوائي السريع بين الأنحاء؛ وكأنما تأثر في ذلك بما دَرِبَ عليه في معيشته من قلق وتنقل دائم، وحِلٍّ وَتِرْحَال مستمر.

وقديمًا حاول ابن قتيبة أن يوجد صلة جامعة بين هذه الأشتات المبعثرة من المعاني والموضوعات، فقال: " وسمعت بعض أهل الأدب يذكر أنّ مقصّد القصيد إنّما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار، فبكى وشكا، وخاطب الرّبع، واستوقف الرفيق، ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين (عنها)، إذ كان نازلةُ العُمُدِ في الحلول والظّعن على خلاف ما عليه نازلة المَدَر، لانتقالهم عن ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلأ، وتتبّعهم مساقط الغيث حيث كان. ثم وَصَلَ ذلك بالنسيب، فشكا شدّة الوجد وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق، لِيُميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعي (به) إصغاء الأسماع (إليه)، لأنّ التشبيب قريب من النفوس، لائط بالقلوب، لما (قد)

(١) ينظر: محمد النويهي، الشعر الجاهلي دراسة منهج في دراسته وتقويمه، جـ١، ص ٣١، ٣٢.

(٢) ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص٢٢٤.

جعل الله في تركيب العباد من محبّة الغزل، وإلف النساء، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلّقا منه بسبب، وضاربا فيه بسهم، حلال أو حرام. فإذا (علم أنّه قد) استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقّب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكا النّصب والسّهر، وسُرَى الليل وحرّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنّه (قد) أوجب على صاحبه حقّ الرجاء، وذِمَامَة التأميل، وقرّر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزّه للسّماح، وفضّله على الأشباه، وصغّر في قدره الجزيل "(١).

وتأويل ابن قتيبة هذا تأويل معتبر وجيه إلا أنه خاص بشعر المديح ولا يَطَّرِدُ في سائر الشعر، ومما يشوش عليه أن الوقوف بالأطلال والنسيب ووصف الرحلة موضوعات افتتح بها الشعراءُ قصائدَ لا تمُتُّ إلى المديح بصلة؛ فكيف يكون التأويل إذن؟.

وحديثًا ذهب بعض النقاد إلى أن الشعر الجاهلي وإن لم يعرف الوحدة الموضوعية والعضوية في كثير من قصائده إلا أنه قد عرف نوعًا آخر من الوحدة أسموه بـ (الوحدة الشُّعورية أو النفسية)، بمعنى أن الموضوعات المتناثرة داخل القصيدة نابعة عن شعور واحد سائد، استولى على كيان المبدع عند إبداعه للقصيدة.

وهذا رأي مُعتبر أيضًا، لكن يؤخذ عليه تسليمه وإقراره بانعدام الوحدة الموضوعية في القصيدة الجاهلية، ويؤخذ عليه كذلك أن التعرفَ على الشعور السائد في قصيدة ما، وَإرجاعَ مُتَفَرِّقَاتِ المعاني إليه وربطَها به لا يتأتى في كل القصائد، فإن استقام في قصائد ذات شعور غالب فإنه لا يستقيم في القصائد ذات التعدد الشعوري.

والذي أراه في تلك القضية أن من الإجحاف بمكان أن نُلزمَ الشعراء- لاسيما الجاهليين منهم(٢)- بِسَلْسَلَةِ المعاني، وربط الأفكار ربطًا منطقيًا ظاهرًا مُحكمًا، فهذا مما يتنافى مع روح الشعر

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، جـ١، ص٧٥، ٧٦.

(٢) أخص الجاهليين بذلك لأن الجاهليين كانوا لا يُلزمون أنفسهم بالتوقف عند كل معنى بالتفصيل والاستقصاء والتحليل، فهم أرباب إيجاز وأهل بداهة وارتجال.

المُحَلِّقة الحرة، ومنذ قديم قال شاعر الطبع البحتري(١):

كـلَّـفـتـمـونـا حُـدودَ مـنـطـقـكـم ** والشـعـرُ يُـغـنـي عـن صِـدقـه كـذِبُـهْ

ولـم يـكـن ذُو الـقـروحِ يَـلْـهَـجُ بـالـ ** ـمـنـطـقِ مـا نـوعُـهُ ومـا سـببـهْ

والشـعـرُ لُـمَـحٌ تكفـي إشـارتُـهُ ** ولـيـس بـالـهَـذْرِ طُـوِّلـت خُـطـبُـهْ

ثم إني أرى أن قصـائد الجاهليين لا تخلو من ترابط وَوِحدة موضـوعية لكنها تخفى في كثير من الأحيان، ويستدعي استكشافها إلى التأمل في القصيدة برمتها؛ فالمعلقات على سبيل المثال لو تأملنا قصـائدها في إطار بيئتها الزمانية والمكانية وما أحاط بإبداعها من ملابسـات وأحداث لوجدنا أنها ذات وحدة موضـوعية متماسكة، تشـدها خيوط خفية، وَصِـلَات دقيقة، وأن أَوَّلَها تمهيدٌ لآخرها، وآخرَها إِحَالَةٌ على أولها، وكل قصـيدة منها تدور على فكرة جوهرية تنتظم ذلك الشـتات؛ فمن يتأمل- على سـبيل المثال- في معلقة زهير يجدها تدور حول موضـوع الحرب والسـلم، ويلحظ تماسـكًا قويًا بين مشـاهدها، وترابطًا واتسـاقًا بين معانيها داخل كل مشـهد؛ فمشـهد الأطلال الـمُهَجَّرة يستدعي إلى الذاكرة ذكرى الهجرة المحفوفة بالمخاطر، الأمر الذي يوجب الإعلان بالثناء والعرفان بالجميل للسـعاة الذين تحولوا بالمجتمع من حال الحرب إلى حال السـلم؛ ولأن الصـلح لا يتم إلا بالتزام الخصـوم بما أبرمه السـعاة من اتفاق فكان لابد من توجيه النصـح للخصـوم بضـرورة الوفاء بالعهد، والتحذير من الغدر، والتخويف من مغبة اندلاع الحرب كرة أخرى، وفي الختام سـاق زهير الحكم وضـرب الأمثال كبراهين سـاطعة على صـحة رأيه وسـداد رؤيته؛ فعلى هذا النحو تبدو القصـيدة ذات وحدة موضـوعية، وتسـلسـل فكري مُسـتسـاغ، ومن يرجع إلى كثير من شـعر الصـعاليك يجد وحدة الموضوع فيه جلية وقوية.

ومما يجب أخذه بعين الاعتبار ونحن نتلمس ذلك الخيط الجوهري الدقيق في قصائد الجاهليين أن نعلم أن هذا الشـعر قد تعرض في أثناء تناقل الرواة له إلى إسـقاط بعض الأبيات، أو تقديم بعضـها

(١) البحتري: الديوان، بشرح وتحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثالثة، جـ ١/ ص٢٠٩، من قصيدة يهجو بها عبيد الله بن عبد الله بن طاهر.

وتأخير بعضها الآخر، مما قد يُحْدِثُ في القصيدة فجوات دلالية تجعل من استكشاف الفكرة الجوهرية للقصيدة أمرًا صعبًا.

وعلى كل حال فإن التوصُّـل إلى فكرة القصـيدة الجوهرية يتوقف على تأمُّل القصـيدة برمتها في ضوء واقعها، وتأويل مفرداتها الرئيسة، ومطالعة رواياتها عند التعدد للاستفادة منها في سد الفجوات، واستكشاف أرجح الدلالات.

المطلب الثاني- عوائق تتعلق بعملية التبليغ:

من أهم عوائق التبليغ التي تحول بين الشباب والانتفاع بشعر الجاهلية ما يلي:

أولا: القصور في التبليغ

من أبرز عوائق التلقي للشعر الجاهلي القصور البين في شرحه والتأريخ له ونقده، ودرس قضاياه، فعندما نجيل البصر قليلا في دواوين الشعر الجاهلي، ثم نتأمل فيما كتب عنه من تاريخ، وشروح ونقد حتى الآن نشعر بالأسف الشديد؛ لضآلة ما كتب عن ذلك الأدب كمًّا وكيفًا رغم أهميته القصوى في إرساء الهوية، وتشكيل الوجدان العربي، وإتحاف الواقع الإنساني بزاد فني ملهم؛ فإلى الآن" لا زال شـعرنا الجاهلي مجهولا في معظم مناحيه، ولا يزال كلامنا عنه في أغلبه قائما على التكرار العقيم، والحدس الخالص، والتعميم المجازف دون معاينة حقيقية لنصوصه "[1]، فشعراء الجاهلية لا نعرف منهم إلا القليل، وكثيرا ما تقتصر معرفتنا على الاسم أو اللقب أو بضعة أبيات، ودواوين الجاهلية كثير منها لا زال مخطوطا قابعا في دهاليز خزائن الكتب شرقا وغربا لم ير النور، ناهيك عما ضاع منها وبُدِّد.

وكتب النقد القديم لم تقف بالتحليل إلا عند بعض من أشـعار الجاهليين في ثنايا متفرقة بحكم طبيعتها وبحكم الوعي النقدي لمرحلتها، وكذا شـروح الشـعر الجاهلي عنيت في المقام الأول ببيان المعنى المعجمي والحرفي لما قد يغمض من الألفاظ والتراكيب، ولم تتوقف عند موضوعاته وقضاياه الفنية إلا لمامًا، وعذرهم في ذلك أنهم درسوا الشعر الجاهلي لا لذاته بل لغيره، فدرسوه في سياقات

(١) ينظر: محمد النويهي، الشعر الجاهلي دراسة منهج في دراسته وتقويمه، جـــ ١، ص ٢٨. نبه النويهي إلى ذلك في الستينيات، وللأسف الشديد لا زال الوضع على ما كان عليه.

علوم اللغة والشريعة للإفادة منه في التقعيد لمباحث تلك العلوم، والاستدلال به في مسائلها، ضِف إلى ذلك أنهم كانوا معنيين بإيضاح النص، أما ما وراء ذلك فكانوا يدعونه تعويلا منهم على ذوق العامة وثقافتهم.

أما دراسة الشعر الجاهلي حديثا فقد اختط المستشرقون أمثال (كارلو نالينو) وغيره خطة التأريخ له على النهج الأوربي؛ ونظرًا لبداءة التجربة، وغربة المستشرقين اللغوية، ورؤاهم وأهدافهم الاستشراقية فرضوا على تاريخ الأدب الجاهلي مناهج ومقاييس لا تتماشى مع طبيعته، فوقعوا جراء ذلك في أخطاء مضللة، ومغالطات فادحة، رددها بعض الدارسين وتناقلوها من كتاب إلى كتاب حتى أخذت حكم المسلمات التي لا تقبل النقد ولا المراجعة، بينما حاول آخرون النقد والتقويم، فصار تاريخ أدب الجاهلية ميدانا لمعارك طاحنة كثيفة النقع تدع المتخصص المراقب لها مشوشا حيرانا، فكيف بالناشئة وغير المتخصصين؟!.

وإذا يممنا وجوهنا شطر الدراسات النقدية الحديثة للشعر الجاهلي وجدناها تتعاطى معه وفق مقاييس ونظريات مجتلبة لم تستنبط من واقعه؛ مما أنتج لنا نقدا شائها يتجرعه المتلقي ولا يكاد يسيغه، وهي أيضا في كثير منها تدرس الشعر الجاهلي عن بعد، بمعنى أنها تنقل عن كتب ألفت عنه ولا ترجع إلى دواوينه لتستوثق مما كُتب، وإذا تأملت في كثير منها وجدت أنها" لا تكتب عن الشعر الجاهلي بل تكتب به عن غيره "[1]، ضِف إلى ما سبق ركاكة اللغة المستخدمة في نقد ذلك الشعر، وخلوها من رونق الأدب في كثير من تلك الدراسات، الأمر الذي ينفر المتلقي من متابعتها، بل ويجعل منها عائقا جديدا يحول بين الشعر الجاهلي ومتلقيه.

ومن أهم مظاهر القصور في تبليغ الشعر الجاهلي وإتاحته للمتلقين لاسيما الناشئة منهم التغافل المذهل عن مواكبة مستجدات العصر وتوظيف طرائقه المستحدثة في العرض؛ فإطلالة سريعة على الصفحات والقنوات الالكترونية المعنية بشعر الجاهلية توقفنا على محدودية تلك الصفحات

(١) ينظر: عمر بن عبد العزيز السيف، فهم الشعر الجاهلي وتفسيره وتأويله، بحث بالمجلد السادس من العدد الثاني والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالإسكندرية، ص ١٩.

والقنوات، وافتقارها المزري إلى أدنى مقومات الجذب والعرض الفعال.

ثانيا: إثارة الشبهات والشكوك

أثيرت حول الشعر الجاهلي جملة من الشبهات التي اتخذ منها البعض ذريعة للتشكيك في صحته جملة وتفصيلا، وأشاعوا ذلك بين الناشئة والدارسين؛ لصرفهم عن الانتفاع والاعتزاز به، هذا في حين أنه لم يحظ تراث أدبي لأمة من الأمم بمثل ما حظي به أدب العرب الجاهلي من العناية والتمحيص، والتحقيق في النقل والتدقيق في الرواية؛ فقد حاطه الجاهليون منذ القدم بعناية مذهلة، فما من شـاعر يبدع أبياتا أو ينشئ قصيدة إلا ويتلقفها الرواة مذيعين لها بالإنشاد والتَّرداد، حتى تبلغ أقاصي البطاح والبلاد.

ولم تكن رواية شـعر الجاهلية لِتَتِمَّ هكذا خبط عشـواء وكيفما اتفق، وإنما كانت تتم عَبْرَ طرائق تشـهد دِقَّتَهَا بمبلغ اعتزاز القوم بذاك الأدب وحرصـهم على تخليده كأهم مُنْجَزٍ لهم في ذلك الوجود، نعم فقد كان لكبار الشعراء **رواة من الناشئة الموهوبين** يلازمونهم ملازمة التلميذ لأستاذه يتمرسون برواية أشعارهم على صقل موهبتهم الشعرية وإنضاج مهاراتهم الفنية.

ولم تكن الرواية قاصـرة على شـعر الكبار، ولا متوقفة على أولئك المتمرسـين بل كانت **القبيلة** أيضـا برجالها ونسـائها وصـغارها وكبارها مَعْنِيَّةً بحراسـة ورواية ما يصـدر عن كافة شـعرائها وتداوله جيلا بعـد جيـل، وكيف لا يُعْنَوْنَ بروايته ونقله وفيه خلود مجدهم وفخارهم، وذكر أحسـابهم وأنسـابهم، وبيان أيامهم ومنازلهم، وخلاصـة حكمتهم وتجاربهم، إن روايتَهم لهذا الأدب وصـيانتَهم له من التلاعب والضياع كان أمرا غريزيًا في طباعهم دفعهم إليه حب البقاء، فلم يكن لهم خيارٌ غيرُه.

ومن بعد الرواة المتمرسـين وأفراد القبيلة يأتي **دور الركبان والمحافل والأسواق** في حمل ذلك الشـعر وإذاعته في الحواضـر والبوادي ليكتسـب الشـعر بذلك ذيوعا وشـهرة بين الجميع يَحُولَانِ دون التلاعب به أو تغييره حتى من قِبَلِ الشاعر الذي أطلقه، فلقد خرج السهم عن قوسه، ولم يعد الشعر ملكًا خالصًا لصـاحبه يتصـرف فيه كيف يشـاء بعد أن شـاركه الجمهور في حفظه وإنشـاده؛ يقول (عميرة بن جعل)

نادما على هجاء صدر منه لقومه وشاع في العرب ولم تعد له حيلة في رده[١]:

نَدِمْتُ عَلَى شَتْمِ العَشِيرَةِ بَعْدَ مَا ... مَضَتْ وَاسْتَتَبَّتْ لِلرُّوَاةِ مَذَاهِبُهْ

فَأَصْبَحْتُ لَا أَسْطِيعُ دَفْعًا لِمَا مَضَى ... كَمَا لَا يَرُدُّ الدَّرَّ فِي الضَّرْعِ حَالِبُهْ

فذاكرة الجمهور هي أوثق ضَمَانَةٍ ضد عوارض التحريف والانتحال والنسيان، وفي ضوء هذا نفهم قولة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- (كَانَ الشِّعْرُ علمَ قومٍ لم يكن لَهُم علم أصحَ مِنْهُ)[٢]، فوصفه للشعر بأنه أصح ما أثر عن العرب يوحي بمدى احتفاظ ذلك الشعر بسلامته في أثناء رحلته وانتقاله عبر الزمن.

وظلت الرواية الشفهية بطرقها تلك سارية المفعول قوية التأثير في نقل الشعر الجاهلي وحفظه من التلاعب والضياع حتى أوصلته سالمًا في جوهره إلى مرحلة التدوين" والتي بدأت إرهاصاتها في الظهور منذ القرن الثاني الهجري واستمرت حتى القرن الرابع الهجري "[٣].

وقد يعجب البعض من احتفاظ العرب بشعرهم الجاهلي طيلة تلك الفترة واعتمادِهم في ذلك اعتمادًا شِبهَ كليٍّ على الذاكرة؛ ولكن يَبْطُل العجب إذا ما وضعنا في الاعتبار قوة الحفظ التي خُصَّ بها الأميون العرب، بدليل أنهم ما كتبوا القرآن في مصحف واحد إلا لتخوفهم من ذهاب القراء بعد وفاة النبي- صلى الله عليه وسلم-، " وما دونوا السنة تدوينا عاما إلا على رأس المائة "[٤]، معتمدين في ذلك على الرواية والحفظ؛ بل سيبدو الأمر أكثر معقولية إذا ما علمنا أن اهتمامهم بالشعر لم يكن ليفارقهم في حل ولا ترحال، ولا سلم ولا حرب، ولا جد ولا هزل، فقد كان الشعر زادًا للرحلة، وحُدَاءً للطريق، وسمرًا للمجالس، وفخارًا في المحافل، ووقودًا للحروب، وداعيًا للمكارم، ومشنعًا بالمثالب، به تستقضى الحاجات، وتنجلي المهمات؛ فَفِيمَ العجَب إذن وقد مَلَكَ الشعر عليهم الحياة

(١) ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ ه، جـ ٢، ص ٦٣٦.

(٢) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، ص ٢٤.

(٣) ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٢٤، ٢٠٠٣م، ص ١٥٩، ١٦٤.

(٤) ينظر: المرجع السابق، ص ١٥٩.

من أقطارها، وصار بقاءهم مرهونًا ببقائه، وفخرهم مستمدًا من روايته وسيرورته؟!.

ورغم حرص العرب البالغ على حفظ الشعر وروايته خلفًا عن سلف إلا أن كثيرًا منه قد سقط من ذاكرة الزمن لأسباب شتى؛ لذا قَالَ أَبُو عَمْرو بن الْعَلَاء: (مَا انْتهى إِلَيْكُم مِمَّا قَالَت الْعَرَب إِلَّا أَقَلُّه وَلَو جَاءَكُم وافرا لجاءكم علم وَشعر كثير[1]، وكذلك وقع في بعض قصائده وأبياته المتبقية تقديم وتأخير، وخلط واضطراب، الأمر الذي تنبه له منذ قديم جمع من الرواة المحققين أمثال: أبي عمرو بن العلاء البصري (ت ١٥٤هـ)، ويونس بن حبيب البصري (ت ١٨٢هـ)، والمفضل الضبي الكوفي (ت ١٨٩هـ)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى البصري (٢٠٩هـ)، وأبي عمرو الشيباني الكوفي (ت ٢١٣ه)، والأصمعي البصري (ت ٢١٦ه)، وأبو زيد الأنصاري (ت ٢٢١هـ)، ومحمد بن سلَّام الجمحي (ت ٢٣١هـ)، وابن الأعرابي الكوفي (ت ٢٣١هـ)، وأبى سعيد الحسن بن الحسين السكري (ت٢٧٥ه)، وثعلب (ت ٢٩١هـ)، وابن دريد، وابن الأنباري، وأبي علي القالي، والمرزباني؛ فهؤلاء وغيرُهم كثيرٌ بذلوا جهودًا مضنيةً لإيصال أدب الجاهلية إلينا صحيحًا، سالما من العبث، منقحًا من الزيف والدخيل.

ويُعَدُّ محمد ابن سلَّام الجمحي- في كتابه طبقات فحول الشعراء- أبرز من ناقش قضية وضع الشعر وانتحاله بمنهجية نقدية في غاية الجودة والإحكام؛ حيث قام بكشف أسباب الانتحال من تَزَيُّدِ القبائل في أشعارها، وعبث الرواة- لاسيما المحترفين منهم كحماد الراوية- بالقصائد، وتساهل الإخباريين والقُصَّاص في رواية الشعر المكذوب[2]؛ ونَبَّه على كثير من صور الوضع وحيل الوضاعين ودوافعهم؛ كما أوضح سُبُلَ التصدي لتلك المشكلة.

ولكن برغم تلك الجهود المضنية المشكورة لنقلة التراث الشعري جاء بعض المستشرقين حديثًا فأعادوا فتح قضية الوضع والانتحال في الشعر الجاهلي من جديد، ولكن بأسلوب علمي يتحرى

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، جـ١، ص ٢٥.

(٢) ينظر: المرجع السابق، جـ١، ص٧، ٨، ٩، ٤٦.

الحيادية عند البعض[١]، وبصورة مِلْؤها التعصب والتحامل على أدب العرب عند البعض الآخر[٢]، والعجيب في الأمر" أن غاية ما توصل إليه الجميع في أبحاثهم ومقالاتهم من نتائج لم تكد تتعدَ ما توصَّل إليه محمد بن سلَّام الجمحي من قبل ذلك بأكثر من عشرة قرون، وكل ما امتازت به تلك الأبحاث أنها اعتمدت في طرحها للقضية على مزيد من الأسانيد التاريخية الموثقة، وحاولت الاستفادة بمعطيات المنهج المقارن في تاريخ الآداب، وبما تم استكشافه- حسب زعمهم- من نقوش وآثار بالجزيرة العربية "[٣].

وبعدما هدأت ثائرة المستشرقين حول تلك القضية- وأيقنوا أن الشعر العربي وإن تكاثرت حول بعضه علائم الاستفهام إلا أنه صحيح في جملته منقح في جوهره، وأنه لا مجال للفصل في شيء من المشكوك فيه لأن الأمر برمته قد صار في ذمة التاريخ- إذا بالدكتور (طه حسين) يجيء على الأَثَرِ بكتابه (في الشعر الجاهلي) سنة ١٩٢٦م، والذي تأثر فيه بأفكار (مرجليوث) المبثوثة في مقالته (نشأة الشعر العربي) المنشورة سنة ١٩٢٥م، ولكنه توسع بها وحاول أن يصوغ منها نظرية عامة تقوم على المنهج

(١) من هؤلاء الذين ناقشوا القضية بأسلوب علمي حيادي إلى حد كبير (تيودور نولدكه) في مقالة له بعنوان (من تاريخ ونقد الشعر العربي القديم)، نشرت سنة ١٨٦٤م، ومنهم أيضا: (بروينلش) في مقال له بعنوان (في مسألة صحة الشعر الجاهلي) نشر سنة ١٩٢٦م، وفيه رد على مقال مرجليوث، ومنهم كذلك (جولد تسيهر) في عدة مقالات له تنظر في كتاب: دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

(٢) ومن هؤلاء الذين ناقشوا القضية بما ينمُّ عن تحامل وتعصب (ألفرت) ي مقال نشره ١٨٧٢م بعنوان (ملاحظات عن صحة القصائد العربية القديمة)، ومنهم (ديفيد صمويل مرجليوث) في مقال نشره ١٩٢٥م بعنوان (نشأة الشعر العربي).

(٣) دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م، ص ١٢، ١٣.

العلمي لديكارت ملقيًا بتهم التزييف وظلال الشك على أدب الجاهلية كله جملة وتفصيلا[١].

وأبرز الشبهات التي استند إليها المشككون وبنوا حكمهم عليها تتلخص في الآتي:

١- شبهة عدم تمثيله لحياة الجاهلية[٢]:

يرى مرجليوث ومن تابعه من المشـككين أن ما وصـلنا من شـعر الجاهلية لا يمثل بصـدق حياة الجاهليين لاسيما حياتهم الدينية الوثنية، فالوثنية بمعتقداتها لا تظهر بقوة في ذلك الشعر مثلما تظهر في القرآن؛ مما يدل على أن ذلك الأدب أدب مصطنع في العصر الإسلامي.

ورأيهم هذا فيه وهم وتضـــليل؛ لأن من يقرأ الأدب الجاهلي بحيادية وتفهم سـيرى أن أدب الجاهلية من أصـــدق الأدب تصـــويرا لواقعه، فبيئات الجاهليين، ومنازلهم، وعاداتهم، وحيواناتهم، ومعايشـهم، وأخلاقهم، ومخاوفهم، وآمالهم، وأفراحهم، وأتراحهم، كل ذلك محفور ومسطور فيما خلفوه لنا من شعر ونثر، ومن ينكر ذلك فكأنما ينكر ضوء الشمس في رابعة النهار.

أما عن غياب الحس الوثني عن الشعر الجاهلي، فهذا **أولًا** ادعاء لم يُبنَ على استقراء، بدليل أن كتابًا ككتاب (الأصـنام لابن الكلبي) مشـحون بذلك الشـعر الذي عنه يبحثون، ضِـفْ إلى ذلك كثيرًا من الإشارات الدينية التي ترد عرضًا في ثنايا شعرهم ونثرهم ولكنها مسبوكة في موضوعات أُخَر فتحتاج في استخراجها إلى تبصر وتذوق.

ثانيًا: تمثيل الأدب لدين العصـر وعدم تمثيله ليس دليلا على صـحته وعدم صـحته، بدليل أن

(١) أُلِّفت في نقد ذاك الكتاب العديد من المؤلفات، أهمها: (الشهاب الراصد لمحمد لطفي جمعة المحامي، وقد طبعه ١٩٢٦م- النقد التحليلي لكتاب الأدب الجاهلي، لمحمد أحمد الغمراوي- نقض كتاب الأدب الجاهلي للشيخ خضر حسين- نقد الأدب الجاهلي للشيخ محمد الخضري- نقض مطاعن في القرآن الكريم للشيخ محمد عرفة- نقد كتاب في الشعر الجاهلي لمحمد فريد وجدى- تحت راية القرآن لمصطفى صادق الرافعي).

(٢) ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصـر الجاهلي، ص ٣٩٣، ٣٩٤/ وينظر أيضـا: نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، أشهر الردود على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين، دراسة نقدية تحليلية، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى، ١٤٢٦ه- ٢٠٠٥م، ص ٢٢٢- ٢٢٤.

قامات شعرية إسلامية كجرير والفرزدق وأبي تمام والبحتري والمتنبي لا يظهر في شعرهم الحس الديني بقوة؛ فهل يعد ذلك دليلا على عدم صحة ما ورد إلينا من شعرهم؟!.

ثالثًا: مقارنة الشعر الجاهلي بالقرآن من حيث الاهتمام بالحديث عن الوثنية الجاهلية مقارنة خاطئة؛ لأن القرآن كتاب دين، اهتم بالحديث عن الوثنية ليبطلها، ويحذر الناس منها، أما شعراء الجاهلية فَمَالَهُم ولهذا؟!.

رابعًا: ثم إن أمة العرب لم تكن قوية في وثنيتها، بل كانت وثنيتهم ساذجة في طقوسها مبهمة في معتقدها ضعيفة التأثير على سلوكهم واهتماماتهم؛ فجاء اهتمامهم بها في أدبهم ضئيلًا يحكي مقدارها في حياتهم.

خامسًا: ولو فرضنا أن أدب الوثنية كان كثيرًا في الجاهلية فإن روايته بعد مجيء الإسلام حتمًا ستضمحل وتتلاشى؛ لتجذر التوحيد في القلوب، ولأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

٢- شبهة عدم تمثيله للاختلاف اللغوي والتعدد اللهجي(١):

شكك مرجليوث وأضرابه في صحة ما روي لنا من شعر الجاهلية بحجة أن ما وصلنا من أدب الجاهلية لا يَظْهَر فيه ما كان معروفا من الاختلاف اللغوي بين عرب الجنوب (القحطانيين) وعرب الشمال (العدنانيين)؛ حيث جاء كله بلغة الشمال، ولم يرد بلغة الجنوب شعر يذكر؛ كذلك لا يظهر فيه التعدد اللهجي للقبائل المختلفة حيث جاء كله بلهجة قريش؛ وبناء على هذا زعموا أن كل ما ورد إلينا من شعر ذوي الأصول القحطانية شعر مفتعل مكذوب، وكل ما ورد من شعر القبائل التي تختلف في لهجتها عن قريش شعر ملفق ومصطنع من قبل الرواة.

وهذه حجة واهية لمن طالع أدب الجاهلية وتاريخها بِأَنَاةٍ وفهم؛ **أما عن مجيء أدب الجاهلية بلغة العدنانيين دون لغة القحطانيين**؛ فمعلوم أن لغة العرب تنقسم في أصلها إلى لغتين: لغة حمير، وهي لغة عرب الجنوب القحطانيين، ولغة مضر، وهي لغة عرب الشمال العدنانيين، وقد نبَّه رواة اللغة القدامى

(١) ينظر: محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ص ١٣١- ١٩٤؛ وينظر أيضا: محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ص ٣٩٥- ٤٠٢.

إلى أن هناك اختلافات كثيرة بين اللغتين، الأمر الذي دفع روايًا كأبي عمرو بن العلاء إلى أن يقول كلمته الشهيرة: (ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا)، هذا صحيح، ولكن هذا الاختلاف ليس - كما ظنه المشككون- اختلافًا جوهريًا لا تلاقي فيه بين اللغتين، وإنما هو اختلاف في كثير من الألفاظ والخصائص التعبيرية؛ أما أصلهما فواحد.

ثم إن هذا الاختلاف لم يدم للأبد- كما توهم المشككون- فمن الثابت تاريخيًا أن عرب الجنوب قد بدأوا النزوح نحو الشمال في هجرات جماعية قَبَلِيَّة منذ زمن بعيد؛ لاضطراب الأمن في بلادهم، ولتغلب الفرس والرومان والأحباش عليهم، وبسبب ما تعرض له سد مأرب من عدة انهيارات كان آخرها سنة ٥٧٥م وقد كانوا يعتمدون عليه في معايشهم؛ ونظرًا لِما بُلُوا به من شتات وتَفَرُّق في صحاري الجزيرة ضُرِبَ به المثل فقيل: (تفرقوا أيَادِيَ سَبَأ)، ونظرًا لمخالطتهم عرب الشمال أمدًا بعيدًا تلاشت فوارق اللغتين، واندمجت لغة الجنوب في لغة الشمال، وصار كل من العدنانيين والقحطانيين النازحين إليهم يتحدثون بلسان واحد؛ ولولا ذلك لما جاز لأبي عمرو بن العلاء -صاحب المقولة السالفة الشهيرة- ولا لغيره من الرواة أن يخادع نفسه ويخادع الناس من حوله ويروي بلغة مُضَر شعرًا لشعراء من ذوي أصول يمنية قحطانية كامرئ القيس الكندي، والأفوه الأودي المذحجي، والشّنفرى الأزدي.

أما عن ادعائهم خلو الأدب الجاهلي من الظواهر اللهجية للقبائل المختلفة؛ فلأن الشعراء والخطباء على اختلاف قبائلهم ولهجاتهم في حقبة العصر الجاهلي قد تواطأوا على اتخاذ لغة أدبية مشتركة فيها من الصفاء والسمو والثراء ما جعلها مقبولة متفهمة من قبل الجميع أسميت بلغة قريش؛ إذ هي أم القرى، وأهلها أهل حرم الله وكبار تجار العرب، وبها كبار المحافل من أسواق وحج، وكان في هذا تهيئة وتمهيدًا لنزول القرآن بتلك اللهجة الجامعة.

ومع هذا فإن بعض اللهجات القبلية قد تسربت إلى شعر الجاهلية ونثرها، وكم نَبَّهَ اللغويون والنحاة قديمًا في كتبهم إلى هذه اللهجات، وعدوها من الغرائب، والنوادر، أو الشذوذات.

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن عرب الجاهلية لربما كانوا يتناشدون تلك الأشعار كُلٌّ بلهجته

الخاصـــة؛ لأن الاختلاف اللَّهَجِيَّ يكون في طريقة النطق للألفاظ ولا يلزم عنه اختلال في أوزانها أو كتابتها.

٣- شبهة تعارض النقوش مع النصوص(١):

زعم المشـككون في صـحة الشـعر الجاهلي أن ما اسـتكشـفه المسـتشـرقون وقاموا بدراسـته من نقوش وكتابة أثرية في بلاد اليمن يثبت أن لغة الحميريين القديمة تغاير تماما ما ينسـب إليهم في الشـعر الجاهلي، والنقوش- في زعمهم- أصدق خبرا من الرواية؛ لأن المنقوش أوثق وأبقى من المكتوب.

وحجة النقوش هذه غيرُ مقنعةٍ بل ومُرِيْبَةٌ، فمن الذي اسـتكشـفها؟ ومن الذي درسـها؟ وعلى أي أســاس تمت دراســتها؟ وكيف أثبتوا أنها نقوش للغة الحميرية دون غيرها من اللغات المنقرضــة القديمة؟ وكيف أثبتوا أنها نُقشت في فترة العصر الجاهلي وليس قبله؟ وما الذي يضـمن لنا صـحة هذه النقوش وعدم اصطناعها لأغراض ما؟ كلُّ هذه علامات استفهام تحتاج إلى بيان من قِبَل المشككين.

فالنقش لا يُعَدُّ ســندًا موثوقًا إلا إذا ثبت يقينا كونه تاريخيا؛ خاصــة وأن افتعال النقوش الأثرية وتقليد الرسومات التاريخية صار في عصرنا أمرًا ميسورا، وإذا ثبت كون النقش تاريخيًا فلا يعتبر حجة فيما نحن بصــدده إلا إذا كان من الكثرة بمكان بحيث يدلنا على اليقين، على أن تتم دراســته من قبل جمع من المتخصصين يتعذر اتفاقهم في الخطأ أو تواطؤهم على المغالطة في الاستنتاج.

ولو صحت هذه النقوش، وتوفرت لها تلك الشروط- وهذا ما لم يتم حتى الآن- فإنها أيضا لن تكون حجة على إنكار شــعر ذوي الأصــول اليمنية؛ لأنهم- كما بينا قبل- تركوا اليمن ونزحوا إلى الشــمال وخالطوا العدنانيين، واندمجت لغتهم الحميرية في لغة مضــر؛ فلو صــحت تلك النقوش فقد تكون لأسـلافهم، أو لمن بقي منهم باليمن ولم يرحل، بل ولربما كانت لبعض الغزاة الذين غلبوا على تلك البلاد وما أكثرَهم.

(١) ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، ص ٣٩٩- ٤٠١.

٤- شبهة وجود انكسارات وزنية:

ثمة أبيات وقصائد يضطرب فيها الوزن كقصيدة عبيد بن الأبرص التي مطلعها:

أقفر من أهله ملحوب... فالقطبيات فالذنوب

فادعى المشككون أن هذه أمارة على وضع ما سوى ذلك من الشعر المنضبط الإيقاع بحجة أن الشعر لم يكن قد بلغ من الترقي الموسيقي والصفاء الإيقاعي ذلك الحد؛ وهذا من أوهى ما استند إليه المشـككون من شـبه؛ إذ هي حجة عليهم لا لهم، ولو أنصـفوا لرأوا في ذلك أمارة على تحري الرواة للأمانة والدقة في النقل، فلولا ذلك لما سـمحوا لمثل هذه الأشـعار بأن تروى على هذا النحو البين اضطرابه، مع تنبههم إليها وتنصيصهم عليها.

وبهذا فإن ما وصل إلينا من شعر الجاهلية يمكن تصنيفه عمومًا إلى ثلاثة أقسام: قسم مزيف نبه عليه وحذر منه الرواة الثقات، فهذا نُهمله ولا نعتد به عند دراستنا للأدب الجاهلي، وقسم اتفق الرواة على صحته أو صححه بعضهم وسكت عنه البعض الآخر فهذا لا يمكن لأحد الآن ردُّه؛ لأن من سمع حجة على من لم يسـمع، وقسـم اختلف فيه الرواة بين القبول والرد، فهذا جدير بمزيد من البحث والتأمل للتوصـل فيه إلى نتائج كاشـفة وفاصـلة لا أن ننفض أيدينا منه ونحكم عليه بالزيف والإهمال، فذاك عقوق منا لتراث استأمننا عليه الأسلاف ونقلوه إلينا؛ لعلنا نعلم نبأه بعد حين، فالمستقبل زاخر بالفتوح والكشوف والأسرار.

هذا؛ والقول بزيف الشعر الجاهلي في جملته يلزم عنه بالإضافة إلى صرف الناشئة عن الانتفاع والاعتزاز به أمور أخر كلها في غاية الخطورة والتدمير، ألا وهي:

١- يلزم عنه القول بأن القرآن الكريم غير معجز في نظمه وأسلوبه؛ لأن الادعاء باختلاق الأدب الجاهلي من قبل الرواة في العصـر الإسـلامي معناه أن الجاهليين لم يكونوا على شـيء من البلاغة والاقتدار على البيان، وبالتالي فإن تحدي القرآن لهم بأن يأتوا ولو بسـورة من مثله يكون تحديًا في غير محله؛ مما يؤدي إلى الإنكار والمنازعة في شأن إعجازه.

٢- يلزم عنه فتح باب التأويل بالهوى للكتاب والسـنة لكل من هَبَّ ودبَّ دون ضـابط أو رابط؛ لأن

ضابط التأويل اللغوي الأدب الجاهلي؛ لذا قال ابن عباس- رضي الله عنهما- (إذا استعصى عليكم شيء في كتاب الله فاطلبوه في شعر العرب)، فكيف إن بَطَل شعر العرب، وصار أَمْرُ لُغتِهم فُرُطًا؟ لو حدث ذلك لتقوضت أركان الشرع.

٣- التشكيك في عموم الأدب الجاهلي يفتح باب الشك على مصراعيه ليشمل كل ما له علاقة بالأدب من قريب أو بعيد؛ فكل العلوم المتعلقة بالأدب كالنحو والصرف والعروض تصير في مهب الريح؛ بحجة أن ما بني على باطل فهو باطل، وبالتالي فدعوات التحرر من قواعد النحو والصرف، وهجر الفصحى وإحلال اللهجات العامية محلها في الحديث والكتابة، ودعوات التحرر من العروض، والمناداة بالشعر الحر، وقصيدة النثر، كل ذلك يغدو مشروعًا ولا حرج فيه لو أبطلوا الأدب الجاهلي؛ بل الأدهى من ذلك والأَمَرُّ أن يطال الشك نصوص القرآن والسنة، بذريعة أن من نقل إلينا أدب الجاهلية المكذوب هم من نقلوا إلينا القرآن والسنة.

٤- في القول باختلاق الرواة لأدب الجاهلية اتهام صريح لأمة الإسلام بأنها قد تواطأت على الكذب في قرونها الـمُفَضَّلةِ الأولى، فكيف بمن يَلُونَهم؟ وهذا المعنى كفيل بأن يملأ صدورنا حَنَقًا على أسلافنا، وازدراءً ومقتًا لكل ما يمتُّ لهم بصلة، وفي هذا غَبْنٌ فاحش، وإهدارٌ تامٌّ لإرث أمتنا الحضاري، مما يجعلُنا أمةً مَبْتُوتَةً عن ماضيها، كَلَّةً على غيرها في الحاضر والمستقبل.

إذن الأمر كارثي خطير ويحتاج منا إلى تيقظ دائم ووعي متعمق، فنحن بدراستنا للشعر الجاهلي لا نتعب أنفسنا عبثًا في نصوص مفتعلة، أو نصوص عديمة الجدوى، وإنما ندرس أدبًا أصيلا يمنحنا اعتزازًا بكينونتنا، وتمسكًا بهُوِيَّتِنا، وتفهمًا لطبيعة الحياة والأحياء من حولنا.

ثالثا: مزاعم التهوين

من يطالع ما كتب عن شعر الجاهلية يهوله كمُّ المزاعم التي ترمي لتشويهه والتهوين من شأنه فتارة يقال بأنه مكرور مملول، وأنه مختلق موضوع، وأنه سطحي ساذج، وأنه مهلهل مفكك، وأنه حسي مباشر، وأنه نتاج عقليات بدائية لا تكاد تمنحنا زادا فكريا نافعا، وأنه" يخلو من الشعر التمثيلي

والقصصي الذي يزدان به أدب اليونان، وأنه متهافت في معانيه مضطرب في أوزانه ومبانيه "[1]، وأنه... وأنه... إلى آخر ذلك من مزاعم التهوين والتشويه الممنهج التي تمثل عائقا عن التلقي الجاد، وصارفا للكثيرين عن الاهتمام المنشود.

ولعل من أشد تلك المزاعم مكرًا وانطلاء حتى على بعض المتخصصين القول بأن شعر الجاهلية شعر مكرور، تتكرر فيه التجارب، وتتشابه المعاني والأفكار، فالوقوف بالأطلال، ووصف الرحلة، والناقة، والفرس، والصيد، والطِّعان، والكر والفر، والصحاري، وما فيها من ظباء وحُمُر، وهاجرة وليل، وغُدْران ومدافع سيل، كل هذا وغيره من التجارب والمعاني مُعادٌ ومكرور في شعر الجاهليين؛ وفي هذا يقول قائلهم[2]:

ما أرانا نقول إلا معارا ** أو معادا من قولنا مكرورا

وقد تسبب هذا الزعم في صرف الأقلام الجادة عن تتبع تلك التجارب المتشابهة بالنقد والتحليل، وفتح الباب واسعًا لتعميم الأحكام بكل جرأة وإقدام، والادعاء بألا جديد هنالك يستدعي الدرس والبحث.

ومما هو معلوم من النقد بالضرورة أن التَّكرار والترديد للتجارب والأفكار أمر واقع في كل عصر ومصر، وليس مرذولًا بالجملة، وكذا ليس مقبولا بالجملة، بل يتراوح أمره بين هذا وهذا، والحكم في نصوصٍ هذا شأنها من أدق القضايا النقدية التي تستدعي ممن يتعرض لها من النقاد طول باع، وسعة خبرة واطلاع على ما أنتجته خواطر الشعراء من معانٍ وأفكار.

ولو تأملنا فيما تكرر من المعاني والأفكار في الشعر الجاهلي لوجدنا أن السبب في هذا يرجع إلى أمور عديدة، من أهمها:

- **توارد الخواطر**: فالمعاني مرتبطة بالتجارب، بمعنى أن كل من عانى تجربة ما (كرحيل الأحبة

(١) ينظر: محمد عبد المنعم خفاجي، مقال بعنوان: دفاع عن الشعر الجاهلي، مجلة الرسالة/ العدد ٨٨٩.

(٢) ينسب هذا البيت إلى زهير، وينسب كذلك لابنه كعب.

مثلا) فإنه قد يتوصل إلى نفس ما توصل إليه غيره ممن تعرض لنفس التجربة من معان وأفكار، لأن عقول البشر وإن تمايزت، ومشاعرهم وإن تباينت إلا أن بينها قدرًا مشتركًا ينتج لنا ما يعرف بتوارد الخواطر، ووقوع الحافر في موضع الحافر؛ وعليه فالمعاني شَرِكَةٌ بين الجميع، واستنتاج الأفكار ليس حكرًا على أحد، والكلام بعضه من بعض، والشيء بالشيء يُذكَر؛ ومن هذا الباب جاء الكثير من المعاني المُحتذاة والأفكار المُقتفاة في شعر الجاهلية حيث تعرض الكثيرون لنفس الظروف ومرُّوا بذات التجارب؛ فتواردوا في شعرهم على معانٍ وأفكار بعينها دون قصد.

- **الاستئناس والاستحسان**: كرَّر شعراء الجاهلية بعض المعاني والأفكار من باب استئناسهم بما طرقه السابقون من معان، واستحسانهم لِمَا توَصَّل إليه الأوائل من أفكار؛ وذلك لِما ركبه الله في طباع البشر من إكبار اللاحق للسابق، واقتدائه بهديه، ولأن ما استنتجه السابقون من معان وأفكار يَجد فيه اللاحقون تراثًا نفيسًا يُغريهم بالإبقاء عليه وإنمائه، ومن هذا القبيل قال امرؤ القيس(١):

عُوجَا عَلى الطَّلَلِ المُحِيلِ لأنّنَا ** نَبْكِي الدّيارَ كما بكى ابنُ خِذامِ

فبكاء الأطلال، ذلك التقليد الشعري الذي توارد عليه كافة شعراء الجاهلية إلا ما ندر، هذا منشأُ الاحتذاء والاقتفاء فيه.

- **المنافسة وإثبات الذات**: توارد شعراء الجاهلية عن قصد على بعض المعاني والأفكار؛ بُغْيَةَ المنافسة في الإحسان، وإثبات القدرة على السبق والإجادة والإتقان، وذلك بإظهارهم للقديم المبتذل في ثوب الجديد المُذهل متوسلين في تحقيق ذلك بتوليد المعاني، وتفريعها، وتعمُّق دقائقها وتوسيعها، واستخراج ما تحويه من طريف خفي، وإيجاز المفصل، وتفصيل الموجز، وما إلى ذلك مما يضفي على المعاني لمسات الذات المبدعة، ويمنحها سمتًا جديدًا مميزًا.

فلو أعدنا النظر في تجارب الشعر الجاهلي المكرورة بالبحث عن أسباب التكرار وأسراره لاستبان لنا في طياتها مبلغ افتنان الشعراء، وإثرائهم للمعاني، وإبداعهم للصور إبداعا يستدعي التقدير والاهتمام،

(١) امْرُؤُ القَيْس بن حجر الكندي، (ت ٥٤٥ م)، ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص١٥١.

فلكل مبدع أصيل بصمة تدل عليه، وَتَنُمُّ عن أصالة موهبته.

رابعا: الأغاليط المكدسة في التأريخ

بُلي تاريخ أدبنا الجاهلي بأغاليط مكدسة بعضها فوق بعض، فبداية من تعريف الأدب ومرورا بتعريف الشعر، والتأريخ لبعض الشعراء والقضايا والأحداث، وانتهاء بتفسير بعض النصوص نجد ركاما من الأخطاء المكرورة، والتي تبدو كمسلمات يتواطأ عليها المؤلفون نقلا وترديدا دون تمحيص، الأمر الذي يحدث بلبلة وتشويشا لدى المتلقين للشعر الجاهلي؛ مما يؤدي في النهاية إلى الإلهاء عن قيمة الشعر الجاهلي والعزوف عن تعمق درسه وفحصه؛ وفيما أعتقد أن التأريخ للأدب الجاهلي بوجه خاص، والأدب العربي بوجه عام علم لَمَّا ينضج بعد فضلا عن أن يكتمل، فهو بحاجة ماسة إلى أقلام جادة تنفض عنه الشبهات، وتستأصل منه الأغلاط والتلافيق، وتضيف إليه ما تجاهله السابقون وغفل عن ذكره الغافلون.

المطلب الثالث- عوائق تتعلق بالمتلقين:

أولا- العزوف

يلمس القائمون بتدريس شعر الجاهلية عزوفا بينًا من معظم الناشئة عن تفهم أجوائه، وصدودًا ممضًا عن مطالعته، بل وعجزًا ذريعا عن قراءته قراءة صحيحة معبرة؛ ويقف وراء ذلك العزوف عديد من الأسباب، منها:

- **أزمة القراءة والاطلاع**: فشباب اليوم عن القراءة معرضون، وفي مطالعة الكتب بوجه عام زاهدون، ناهيك عن دواوين الشعر، لاسيما الجاهلي منه؛ إذ غدا معظمهم مشغولا ومشغوفا بمطالعة منصات التواصل الاجتماعي ليل نهار، التي تزحم العقول ببث الغث والثمين، والجيد والرديء، فتنتج عقولا ضحلة، ووعيا منتفشا هشا، وثقافة خادعة شوهاء، تُخيِّل للكثيرين أنهم ليسو بحاجة إلى قراءة ولا مطالعة ولا تعلم دؤوب جاد، بل ويصل الأمر أحيانا إلى حد الاستخفاف والهزء بمثل هاتيك الأمور التي يرونها مما عفى عليها الزمن؛ كما يتسبب الإدمان على مطالعة تلك المنصات في انعدام الصبر في طلب العلم والأدب، فالشاب ألف السهولة والسرعة في الوصول إلى ما يريد، فأنى له أن يصبر النفس

ساعات في تعلم، فضلا عن تفهم متأن وتأمل متعمق.

- **الجهل بفائدة الأدب الجاهلي وتوهم عدم جدواه**: فغالبية الدارسين إذا ما سئل: لماذا ندرس الأدب بوجه عام، والأدب الجاهلي بوجه خاص؟ لا يكاد يُحِير جوابا شافيا محفزا للنفس على تكبد مشاق الطلب، والسوأة السَّوآءُ أن بعضا من المتخصصين يتوهم بأنه لا جديد يرتجى من وراء دراسة الأدب الجاهلي وأن البحث في الشعر الجاهلي صار عقيما، وأنه قتل بحثا، وما قتلوه، وما بحثوه، ولكن شبه لهم؛ ويتجلى أثر هذا الوهم في أنه يصرف عددا من الأقلام الجادة عن النزول بساحه، فيظل الشعر الجاهلي كمادة خام لم تمسسها يد الصناع المهرة، فتبدو في نظر الناشئة كبضاعة زهيدة القيمة كاسدة السوق، وحتى من أراد منهم الانتفاع بذلك الأدب وتجشم مصاعب التوغل في ميدانه المعتم المهجور قلما يجد خبيرا ينير له الدروب المكتمة.

- **ضغوط العصر وتحولاته**: أنهكت ضغوط العصر الشباب، واستهلكت متطلبات الواقع المتتابعة، وتحولاته المتسارعة طاقتهم، ولم تدع لدى الكثيرين منهم استعدادا للتعلم الجاد، والدرس المثابر.

- **المادية الطاغية**: قد يعذر الشباب في عزوفهم عن شعر الجاهلية لتعرضهم لسطوة انبهار لاهث بكل ما هو مادي في واقع لا يكاد يرى فيه الشباب تقديرا كافيا ومرضيا لذوي العلم والأدب، ويكرس لحالة الانبهار المحموم هذه إعلام يبث ليل نهار توجيهات مباشرة ومبطنة بأن المادة هي كل شيء، وبأن تحقيق الغنى والجاه والحياة الكريمة لا ولن يكون من طريق اجتهاد في طلب علم أو تحصيل أدب، وأن أبواب الشهرة والمجد والثراء السريع التي يحلم بها الشباب طريقها الأوسع التمثيل، والكرة، والتعدي، والنصب والاحتيال، وتجارة الممنوعات؛ ولكن على الشباب أن يعلم أن تحصيل الثقافة والأدب ضروري لتحقيق الذات، كما أن المال ضروري لسير الحياة، وأن في مطالعة الأدب غذاء للروح لا يقل أهمية عن غذاء البدن[1].

ثانيا: عدم امتلاك أدوات التلقي

ينفر شبابنا من دراسة الشعر الجاهلي ويتوجسون منه خيفة لعدم امتلاكهم لأدوات تلقيه، الأمر

(١) ينظر: مريم حمزة، غموض الشعر ومصاعب التلقي، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت- لبنان، ص ١٩، ٢٠.

الذي يحول بينهم وبين الإفادة منه، والانتفاع به، شـأنهم في ذلك شـأن الجائع الذي يرى بيوت النحل من قرب، ولكن لا يكاد ينتفع بشـيء من العسـل؛ لعدم امتلاكه أدواتِ وخبرات جَنْيِهِ؛ فبقدر امتلاك الأدوات والخبرات تكون الفائدة؛ ومن أهم الأدوات المطلوبة لتحقيق التلقي المنشود لشعر الجاهليين أن يكون لدى المتلقي حصيلة لغوية تسعفه في فهم المعنى الإجمالي للنص، ومحفوظ شعري يمكنه من التعليق وإبداء الرأي في قيمة ما يدرس ويقرأ، وإلمام بالواقع التاريخي والبيئي لعرب الجاهلية كيما تتضح له المقاصد والأفكار والمعاني، ولا ريب أن هذا كله مما يعز وجوده ويتعذر.

هذا؛ وإن ساغ لنا بحال التغاضي عن توفر تلك الأدوات السابق ذكرها رضوخا منا للأمر الواقع، ومسايرة منا لتدني المستوى التعليمي والتثقيفي بمراحل ما قبل التعليم الجامعي فإنه لا يسوغ لنا بحال من الأحوال التغاضي عن امتلاك الدارسين مهارات الكتابة والقراءة، فما أكثر ما يتلجلج دارسو شعر الجاهلية في قراءة نصوصه، وينتابهم شعور بالحيرة والعجز عن معرفة النطق الصحيح لبعض مفرداته وتراكيبه، لاسيما عند القراءة في كُتب تُغْفِل ضبط الكلمات بِالشَّكْل؛ ومنشأُ تلك الصعوبة عدة أمور، منها: ضـعفُ سـليقتنا اللغوية، واعتيادُنا على التخاطب بالعامية الصِّـرفة حتى في أمورنا الجِدِّية التي تتطلب منا قوة المنطق وبلاغة البيان، ومما يزيد الطين بِلَّةً عدم إتقان البعض لقواعد الكتابة والقراءة أصلًا.

فأقل ما يجب توفره فيمن يدرس شـعر الجاهلية إتقان القراءة؛ فإتقان القراءة هو مفتاح التعلم لكافة الفنون والعلوم؛ وهذا هو سـر أول توجيه قرآني لإسـعاد العباد (اقْرَأْ بِاسْـمِ رَبِّكَ الذِي خَلَقَ)[1]؛ وإن تعجب فعجب أن ترَ عرَبًا يتلعثمون في قراءة كلام العرب، ويخطئون في كتابته بينما تجد أعاجمَ يقرؤونه ويكتبونه بحذق وإتقان!! لماذا؟ لتهاون ناشـئتنا في إتقان القراءة وعدم الاصـطبار على تعلمها، لاسـيما بعد فوات مرحلة الطفولة، أما الأعاجم فيأخذون الأمر بجد واهتمام بالغ؛ وبعد إتقان القراءة يحتاج دارس أدب الجاهلية إلى الإلمام ببعض قواعد النحو الأساسية والتمرن على استعمالها في أثناء كتابته وحديثه بالفصحى، حتى يستقيم لسانه، وتقوى سليقته، وتصير قواعد اللغة مألوفة له، تلقائية

(١) سورة العلق، آية رقم (١).

عنده؛ فإذا راعى الدارس ذلك واهتم به استطاع أن يقرأ شعر الجاهلية وغيره بفصاحة تبعث في النفس الراحة والمتعة؛ وليعلم الدارس لشعر الجاهلية أنه لن يتغلب على صعوبة قراءته بشكل تام إلا بعد الممارسة لقراءة نصوصه زمنًا ليس باليسير؛ إذن ناشئتنا بحاجة إلى إتقان القواعد الأساسية للإملاء، والنحو، وممارسة القراءة للنصوص الشعرية بصورة شبه يومية حتى يقرؤون بطلاقة؛ وسعيًا لتحقيق ذلك القدر اليسير من أدوات التلقي يجدر بالكليات والأقسام التي تدرس الأدب أن تعقد للمتقدمين إليها من الطلاب اختبار قبول يعنى بالتحقق من إجادة أولئك المتقدمين من مهارات القراءة والكتابة، وهذا المطلب وإن كان مثيرا لدهشة البعض واستنكاره إلا أن من عاين الواقع عرف كم هو هام ومُلِح.

المبحث الثاني

طرائق التلقي المُثْلَى

بعد أن تعرفنا على أبرز المعوقات التي تحول بين شبابنا والانتفاع الأمثل بشعرنا الجاهلي ننتقل للتعريف ببعض الوسائل والطرائق المثلى لتلقيه تلقيا جادا ومثمرا، وهذه الطرائق منها ما يرتبط بالمتلقي، ومنها ما يرتبط بعملية التبليغ، وذلك على النحو التالي:

المطلب الأول- طرائق تتعلق بالمتلقي:

ثمة أمور لابد من توفرها لمتلقي الشعر الجاهلي، لأنها فارقة وملحة، وتتمثل في الآتي:

أولا: التأهيل النفسي

الناشئ المتلقي للشعر الجاهلي بحاجة ماسة إلى تأهيل نفسي لتقبل ذلك الشعر والتفاعل معه؛ فالشعر الجاهلي بعيد عن اهتماماته، عتيق في أفكاره، بدائي في صوره، غريب في لغته، يحتاج إلى مران دؤوب، واطلاع نَهِم لتذوقه، فأنى لشبابنا المنهك المتمرد العجلان بتقبله أو الإقبال عليه دونما تأهيل؟! إذن لابد من التأهيل كيما تتوفر لديه رغبة في الانتفاع، واجتهاد في الطلب.

والتأهيل النفسي لدارسي الأدب الجاهلي يستلزم أمورا ثلاثة:

الأمر الأول: أن يدرك الدارس أهمية ما يدرس

فلو لم يدرك الدارس ابتداء قيمة ما يدرس وأهمية ما يطلب فلا سبيل إلى تلق ناجع بناء. منذ اللحظة الأولى لدراسة الأدب الجاهلي يثور لدى الدارسين تساؤل مفاده: ما أهمية الأدب الجاهلي؟ لماذا نشغل بالنا ونحن في القرن الواحد والعشرين بدراسته، ونخصص له الكتب والمحاضرات، ونُفني في مطالعته ثمين الأوقات؟! من الدارسين من يخفيه حياء أو لعدم المبالاة، ومنهم من يبديه، وقليل ما هم؛ لذا يجدر بالقائم بالتدريس أن يتطوع بإثارته وبالإجابة عنه مقدما؛ حتى لا يضيع جهده هباء.

فالخطوة الأولى للتلقي البناء أن يعلم الدارس أن الأدب الجاهلي جدير بالدراسة والاهتمام البالغ؛ لما له من قيمة دينية، وحضارية، وفنية؛ **فأما عن قيمته الدينية**: فتتمثل في كونه يمثل المرجعية اللغوية للشرع من قرآن وسنة؛ فبدون أدب الجاهلية تغدو نصوص الشريعة بالنسبة لنا كالطلاسم

معتمةَ الدلالةِ غامضةَ المفهوم، مما يُحْدِثُ قطيعةً بين الأمة ومصدر هدايتها وبالتالي تفقد سر خيريتها وتذهب هُوِيَّتُها أَدراجَ الرياح.

وأما عن قيمته الحضارية: فتكمن في كونه وثيقةَ ميلادِ حضارتِنا العربية، ومُؤَهِلَ أمتنا لحمل خاتم الرسالات السماوية، ففي العصر الجاهلي نَضُجَت لغة العرب وجادت قرائحهم- آنذاك- بذلك الأدب الذي يعد أروع وأكمل ما يمكن أن يتأتى للبشر من بيان؛ فعندئذ جاد عليهم الرحمن بنزول القرآن بذلك اللسان العربي المبين، واللهُ أَعلمُ حيثُ يجعل رسالته؛ فلك أن تتصور قيمة ذلك الأدب الذي أَهَّلَ هذه الأمة لتلك المنحة، وجعلها جديرة بشرف الخلود إلى الأبد، يقول الله تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)(١)؛ فأدبٌ تلكَ قيمتُه وذَاكَ سِرُّهُ، أليس جديرًا بأن يُدْرَسَ ويُعْتَنَى به لتستعيد الأمة عزتها المُهدَرة، وكرامتها السليبة؟.

نَاهِيكَ عن أن دراسة الأدب الجاهلي فيها تعزيز للانتماء وحفاظ على الهُوِيَّة والقيم العربية الأصيلة المهددة بالمسخ والتشويه في واقعنا المحتدم باصطراعٍ حضاري محموم.

ضِفْ إلى ذلك أنه لن يستقيم للأمة قراءةُ حاضرها واستشرافُ مستقبلها إلا بِتَفَهُّمِ ماضيها واستيعاب تراثها الأدبي والحضاري؛ فأمةٌ بلا ماضٍ أمةٌ بلا حاضر ولا مستقبل.

أما عن القيمة الفنية للأدب الجاهلي: فتتمثل في كونه يحمل عَبَقَ الشاعريةِ المُعَتَّق، وأَلَقَهَا الوَهَّاج، وكونِه المُستَودَعَ الأصيلَ للغة أدبنا العربي وَقِيَمِه وخصائصِه وأسرارِ عبقريته؛ وهو عَتَبَتُهُ الأولى وأُسُّهُ التَّليدُ الذي مهما طال بأدبنا الأَمَد، ومهما تنازعته صيحات التطوير والتجديد فلن يبرح أرضَهُ ولن يحيد؛ لذا لا يمكن دراسة أدب العرب في عصر من عصوره التالية دراسة واعية إلا بتفهم ذلك الأدب الجاهلي والاهتداء بهديه، فهو المرجعية المعتمدة لأدبنا العربي حتى في أعنف صيحات حداثته؛ وعلى قدر فهم الدارس لأدب الجاهلية يكون فهمه لأدب العصور التالية؛ ومن أجاد قراءة ذلك الأدب فقد حِيْزَ له بيانُ العرب، بل إن المبدعين من الشعراء والكتاب لتتفاوت حظوظهم في البراعة والإجادة بتفاوت استيحائهم لأسراره ومطالعتهم لروائعه.

---

(١) سورة الأنبياء، آية ١٠.

ودراسة أدب الجاهلية يعد أمرًا ضروريًا وملحًا للتعرف على لغة العرب المثلى، واستكشاف أسرارها، وتطور مدلولها، والحفاظ على حيويتها وسريان مفعولها.

إذن دراستنا للأدب الجاهلي ليست عبثًا، وجهودنا المبذولة في تفهمه لن تذهب سُدى، بل ستعود علينا بالنفع في الدين والدنيا.

الأمر الثاني: أن يدرك الدارس فائدة ما يدرس

كم يهون على المتلقي مشقة الطلب وعناء البحث والدرس حينما يدرك أن بعد المشقة سيجني ثمرة، وبعيد العناء سيحرز مطلبا ويحقق طموحا؛ ولأن معظم الدارسين للأدب الجاهلي من الشباب لا يعرفون ولا يستشعرون فوائد دراسته، فأولى بالقائمين بالتدريس التوعية بهذه الفوائد قبل الشروع في التدريس، وانتهاز الفرصة للتذكير بها من حين لآخر، حتى تستقر في الوعي، وتغدو مطمحا منشودا.

ومن فوائد دراسة الشعر الجاهلي التي يلزم التنبيه عليها:

- **تفهم القرآن والسنة**: فشعر الجاهلية يعد المرجعية اللغوية للشرع من قرآن وسنة، يقول الله تعالى[1]: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)، فبقدر تصبرنا على تعلم شعر الجاهلية يكون حظنا من فهم كلام ربنا وسنة نبينا- صلى الله عليه وسلم- يقول ابن عباس رضي الله عنهما: (إذا استعصى عليكم شيء في كتاب الله فاطلبوه في شعر العرب)، ويقول الإمام الشافعي: (طلبت اللغة عشرين سنة حتى أتعلم الفقه) فالفقه عن الله ورسوله مرهون بالتمكن من لغة العرب، وفي شعرهم لمن أراد ذلك عون ومدد؛ ولو لم يكن لدراسة شعر الجاهلية من فائدة إلا تلك لكفى بها من فائدة.

- **الاقتدار على البيان الفصيح البليغ**: فالعكوف على مطالعة شعر الجاهليين تهب المتلقين قوة بيان، وحلاوة منطق، وبلاغة عبارة، ويا حبذا لو صاحب ذلك حفظ لجيادٍ مختارة من قصائده وأبياته، ولو نُسيت بعد حين، فالحفظ معوان على ارتسام منوال المنطق البليغ بالوجدان؛ لذلك قيل: (احفظ تقل إن الكلام من الكلام)؛ ومعلوم أن الحاجة إلى البيان البليغ حاجة ملحة للجميع، فالخطيب والمؤلف، والفقيه والمفسر، والقاضي والمحامي، والدارس والمدرس، والطبيب والمهندس، والصانع،

(١) سورة إبراهيم: من الآية رقم (٤).

والزارع، والسائق والتاجر، والمقيم والمسافر، والصغير والكبير، الكل لا غنية له عن أن يبين عن نفسه، ويُعرب عما يريد، وعلى قدر امتلاك المرء لملكة البيان يكون حظه من الحضور والتأثير.

- **فهم الحياة بعمق**: لابد أن يعلم الدارس أن الأدب مادة حياة لا مجرد مادة دراسية، وأن قراءة تجارب الجاهليين رغم قدمها إلا أنها تمنحنا فهما للحياة أعمق، وبصرًا بواقع الإنسانية أدق، وقدرة على التواصل أفضل؛ فالمرء مهما طال عمره وتنوعت تجاربه فلن يعاين إلا تجارب محدودة، لكن لو قرأ الأدب فسيضيف لعمره أعمارا، ولخبرته بالحياة خبرات وخبرات، يتحفه بذلك أدباء سطروا في شعرهم وأدبهم زبدة ما خبروه عن الحياة والأحياء.

- **إنعاش الفطرة وتجلية الحس**: فشعر الجاهلية يَمْنَحُنَا بَكَارَةَ الرؤيةَ لِـمَا حولنا من أشياء؛ حيث يعرضها علينا بِحِسَّ البداوةِ الفطريِّ الـمَشْدُوهِ بما يَشهدُ في جنبات الكون، فتبدو من حولنا الأشياء غَضَّةً مبهرة وكأننا نراها للمرة الأولى، فيغدو شعورُنا وقد تَعَافَى وانقشعَ عن حِسِّنَا غَبَشُ الحضارةِ وَرَتَابَةُ الإِلْفِ والعادة.

الأمر الثالث: **أن يعلم الدارس أن المقرر الدراسي وحده لا يكفي**

على الدارس أن يعي منذ البداية أن المقرر الدراسي ليس إلا خطوة أولى في طريق التعرف على الشعر الجاهلي، وأن المقرر مهما كان ثريًا وقويًا فإنه لا يغني عن الرجوع الذاتي إلى مصادر ذلك الشعر، والمطالعة الحرة لدواوينه وشروحه، وأن الاقتصار على قراءة الكتاب الدراسي قد يكفي لاجتياز الاختبار لكنه لا يكفي لتحصيل الفوائد المرجوة من ذلك الشعر، فمتى وعى الدارس ذلك، وطالع الأدب على أنه مادة حياة لا مادة دراسة وحسب عندها تكون الاستفادة القصوى والانتفاع الأمثل.

ثانيا: التثقيف المتدرج والواسع

لا يؤتِ تدريس شعر الجاهلية فوائده المبتغاة ما لم يكن الدارس على قدر من التثقيف يمكنه من التفهم له والانفعال به، والإعداد لمتلق مثقف عمل شاق يحتاج إلى تدرج[١] وفق رؤية مؤسسية طويلة الأمد، إلا أن المتلقي الجاد الذي يمتلك الرغبة والاستعداد يمكنه استدراك القصور الحاصل في التعليم المدرسي بالتعلم الذاتي والاطلاع الحر المسترشد بتوجيهات ذوي التخصص.

ويجدر بدارس شعر الجاهلية التثقف بثقافة أدبية، ولغوية، وعلمية؛ فأما الثقافة الأدبية فعليه الإلمام بالواقع البيئي والتاريخي لعرب الجاهلية، والاطلاع قدر المستطاع على سننهم وتقاليدهم ومعارفهم، وذلك بالتزامن مع الرجوع إلى الدواوين والمصادر لمعاينة ذلك الشعر من كثب.

وأما الثقافة اللغوية فأن يمتلك من معارف ومهارات النحو والصرف والبلاغة والمعاجم ما يمكنه من القراءة الصحيحة والفهم السليم والتذوق وإبداء الرأي.

وأما الثقافة العلمية" فأن يجتهد في الإحاطة بخلاصة الحقائق العلمية التي انتهى إليها الباحثون "[٢] فيما يتعلق بحيوات الجاهليين ذات الحضور الطاغي في شعرهم كعلم النفس، والبيطرة، والنجوم، والفراسة، والقيافة، والعيافة، والريافة، فتحصيل نُبَذ عن هذه العلوم يجعل الدارس أكثر وعيًا بما يتلقى واقتدارا على الانتفاع به.

ثالثا: التقمص الشعوري والتماهي العاطفي

الشعر الجاهلي يتطلب من المتلقي" تقمص شعور الشاعر القديم "[٣]، في محاولة للتقارب معه في الرؤية، والاندماج معه في الحس، والتوحد في العاطفة، فذلك التقارب النفسي هو الوسيلة المثلى

---

(١) ينظر لابن خلدون في المقدمة بالفصل السابع والثلاثون كلام ماتع في وجه الصواب في تعليم العلوم والتدرج في تلقيها شيئا فشيئا.

(٢) ينظر: محمد النويهي، ثقافة الناقد الأدبي، ص ٦٧.

(٣) نبه إلى هذه الوسيلة محمد النويهي في كتابه (الشعر الجاهلي دراسة منهج في دراسته وتقويمه) جـ ١، ص ٣٦، ١١٨، وفي غير ذلك من المواضع، وأسماها بالتعاطف العليم، أو التشارك العاطفي.

لردم هُوَّة الزمن ونفض غبار القرون عن تلك التجارب المعتقة التي لا تبوح بأسرارها إلا لذوي الشعور المصفى من لوثات التحضر وآفات التمدن، فأولئك هم الأقدر على رؤية ما فيه من بكارة ماتعة، وخلابة فطرة، وجلال مهيب.

نعم يعاني الكثيرون عند دراسة الأدب الجاهلي من عدم التأثر والانفعال ببعض تجاربه وموضوعاته، على الرغم من أن هذه الموضوعات قد تأتي مكررة في كثير من نصوصه، بل وكثيرا ما ترد في أعظم نصوصه قيمةً، وأروعها فنًا، من ذلك مثلًا: تجربة الوقوف على الأطلال، ووصف السيل، والليل، والماء، والخضرة، والرحلة، والناقة، والصحراء، فلا تكاد تخلو قصيدة جاهلية من بعض تلك التجارب، ولكن قَلَّما نتعاطف مع الشاعر ونشاركه شعوره، الأمر الذي يُفقدنا كمال متعة التذوق لتلك الأشعار، ويحرمنا الإفادة بما فيها من زادٍ فني أصيل وإنساني صادق.

والأسباب التي تصيب الشعور بالفتور أو اللامبالاة عند قراءة بعض التجارب الأدبية الجاهلية أسباب كثيرة منها:

- **خروج تلك التجارب من دائرة اهتماماتنا المعاصرة**: فمثلا عندما يقرأ البعض لشاعر يبكي الأطلال، أو يطنبُ في وصف الناقة، أو يصور ظلمة الليل، أو يمعن في ذكر تفاصيل لبئر أو مرعى، يقرؤونه بشعور مخدر وحس بارد؛ لأن الأمر لا يعنيهم، فما ركبوا من قبلُ جملا، وما رأوا قطُّ طللا، وما عانوا ظلامًا، ولا تهددهم القحط والجدب يومًا، ولكنهم بذاك التجاهل يحرمون أنفسهم فرصة إنضاج حسهم الإنساني بالتعاطف مع الآخرين من بني الإنسان، كما أنهم يغلقون على أنفسهم بابًا لاستكشاف أهم خصائص الأدب الجاهلي، والتعرف على منابع الشاعرية والإلهام والتفرد الأخاذ الذي يتجلى في ثناياه؛ نعم، فتلك تحديدًا هي أخص تجارب الجاهليين التي ألهمتهم سحر البيان وعبقرية الإبداع؛ فمن كان ملتمسًا لسر شاعريتهم فليطلبه في مثل تلك التجارب التي يمر عليها الكثيرون وهم عن تأملها غافلون؛ ولا سبيل لإيقاظ الحس وإنعاش الشعور بمثل هذه التجارب إلا بالتمرُّن الدؤوب على تَقَمُّصِهَا، واستحضار أجوائها، والتخيُّل الخلاق لمفرداتها؛ فعندما تقرأ قول زهير عن وقوفه متحيرًا

بالأطلال[1]:

وَقَفْتُ بِهَا مِن بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً... فَلَأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ

عليكَ أن تتقمص تجربة ذلك الرجل وتتخيل أنك قد أقمت في مكان زمنًا أنت ومن تحب، ثم رحلت فطال أمد الرحيل وامتد، وبعد انقضاء زهرة العمر وانزواء الشباب يعود بك الحنين إلى ذلك المكان، لكن تجده وقد تغيرت ملامحه، وتبددت آثاره، ولم يبق لك فيه إلا عبق الذكرى، الذي يشدك نحوه في خفاء، ويناديك ولكن بصمت، فتارة تقف مُطْرقًا متأملًا، وتارة تضطرب خطواتك متلفتًا حائرًا، حتى تعثر على أثر تتعزى به عن ذلك الفَقْدِ، وتتشبث به لتنجو بنفسك من تِيْهٍ مُطْبِق.

كذلك عليك أن تنظر إلى الأشياء بذات العين التي نظر بها الشاعر قديمًا فعندما يصور لك زهير في معلقته مشهد الماء بغدير وادي الرسِّ وقد حطت الظعائن رحالها بجانبه، فيقول:

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقًا جِمَامُهُ ** وَضَعْنَ عِصِيَّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ[2]

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلَّطِيفِ وَمَنْظَرٌ ** أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ

فاستشعر تلهفه وهو ابن الصحراء إلى الماء سر الحياة ومحور البقاء، وشاركه تلك الفرحة وذاك الانبهار الذي ملأ حسه بالصفاء الماتع والرِّيِّ الوادع، أمَّا إن نظرت إليه على أنه مبهور بمجرد المظهر كنظرنا نحن الآن إلى جمال حمامات السباحة فلن تدرك مقصد الشاعر ولا سر فنه.

فاستشعار أجواء التجربة وتخيلها وتقمص شعور مبدعها ضروري لاستكشاف جمالها، والانفعال بها.

- **توهم التكرار**: أيضا من الأمور التي تحول بيننا وبين الانفعال ببعض تجارب الأدب الجاهلي أن

(١) البيت من معلقة زهير بن أبي سُلْمَى، (عشرين حجة) أي عشرون سنة، (فلأيًا) أي بصعوبة بالغة، (توهم) تحير واشتباه.

(٢) البيت من معلقة زهير بن أبي سُلْمَى، (فَلَمّا وَرَدْنَ) يتحدث عن ظعائن محبوبته، (زُرْقًا جِمَامُهُ) صافيًا يسر الناظرين بزرقته وكثرته، فالجِمام أي المتكاثر المتراكم، (وَضَعْنَ عصيّ) وضع العصا كناية عن الإقامة واستقرار، (الْمُتَخَيِّمِ) الذي نصب الخيام بنية الإقامة.

نتوهم أن التجربة مكررة فلا داعي للتوقف عندها بالتأمل، بل قد يدعو هذا بعضًا إلى اتهام أدب الجاهلية بالتقليد الممجوج، إلا أن الحقيقة تشهد بأن في طيات ما نظنه تكرارًا تكمن مزايا عبقرية الأديب ولمساته المتفردة، فالأديب الأصيل يَقُدُّ تجربته من لحمه ودمه ويمزجها بروحه وأنفاسه، فمهما توارد الشعراء والكتاب على موضوع بعينه فلكل منهم بصمة تخصه، ولا يستكشفها إلا من أعطى للتجربة حقها من التأمل والانفعال.

- **الاكتفاء بالفهم السطحي للنص**: يتبدد وهج التجارب الأدبية الجاهلية إن توقفنا في فهمنا لها عند المستوى اللغوي المباشر، والدلالات الأولى للألفاظ بأن نتعرف على مجرد معانيها وتفسيرها المعجمي، ثم لا نتعمق فيما وراء ذلك من قِيَمٍ ودلالات عميقة، ينتجها التأمل في أجواء النص وما أحاط بمبدعه من ظروف ومؤثرات، وحتمًا لن يتأتى ذلك للقارئ من قراءته الأولى بل لابد من تكرار القراءة مرات ومرات.

- **الأسلوب الخاطئ للقراءة**: مما يعوقنا عن الانفعال بالأدب عموما والجاهلي منه خصوصا قراءة النصوص بطريقة خاطئة، كأن نقرأها بسرعة أو في صمت، أو دونما مراعاة لما تقتضيه المعاني من وقف وابتداء ونبر وتنغيم؛ فأدب الجاهلية أولَ ما ظهر إلى الوجود ظهر مسموعًا يتناشده الشعراء والرواة والحُداة، مُنَغِّمين بأصواتهم لمعانيه، ومعبرين بإشاراتهم عن مراميه، فكان لإنشادهم صدًى هَزَّ الجوانح وانتَشَتْ به النفوس، فمن أراد الانفعال بأدب الجاهلية فليقرأه قراءة معبرة كما قَرأه الرواة بادئَ أمره.

المطلب الثاني- طرائق تتعلق بعملية التبليغ:

عملية التبليغ والعرض إما أن تكون عامل ترويج وجذب، أو عامل كساد وصد؛ وليكون تبليغ شعر الجاهلية محمود المردود لابد من مراعاة الآتي:

أولا: مواكبة مستجدات العرض الفعال

لا زالت الطرائق المتبعة في تبليغ الشعر الجاهلي وتدريسه مفتقرة إلى التحديث المواكب لمستجدات العرض الفعال؛ فمن تلك الطرائق التي يجدر بمدرسي الأدب الاعتناء بتوظيفها في الكتب

والمحاضرات (الصور والخرائط)، فكم تقرب الخريطة الأمور إلى الأذهان، وكم تغني الصورة عن كثير من التوضيح والبيان، لاسيما فيما يتعلق بالأشياء التي يتعذر وجودها في بيئتا وعصرنا الحديث، فعلى سبيل المثال صورة الناقة الأخاذة الدقيقة في معلقة طرفة بن العبد[1]، التي لا يكاد يترك منها صغيرة ولا كبيرة إلا رسمها ودقق في تلوينها بتعابيره، وكأنما استهوته تلك الناقة فَنَحَتَهَا- نَحْتَ الـمُتَيَّمِ الـمُحِبِّ- بلحمه ودمه تمثالًا، آيةً منه على إعجابه البالغ بها كرفيقة دربٍ، ومَرْكِب نجاة، هذه الصـورة لا يمكن الإلمام بها، وتبليغها للدارسين بمجرد تفسير الكلمات، أو شرح التعابير والتراكيب بل تحتاج بجانب ذلك إلى صورة شارحة كتلك الصور التي نراها في كتب الطب والتشريح؛ وعندما نتحدث عن جزيرة العرب ومواطن القبائل لابد من الاستعانة بما يقرب ذلك من خرائط، وهكذا؛ ولو استعان القائمون على تدريس الأدب الجاهلي بآلية الصـور والخرائط لصـارت مادة الأدب الجاهلي من أروع وأكثر المواد جاذبية وتشويقا، ولأسهمت تلك الصور والخرائط في توفير وقت ثمين يتبدد هباء في شرح ما لا يتأتى تصوره فضلا عن فهمه لعدم وجوده في بيئتنا.

كذلك مما يستعان به في تبليغ وتدريس الشـعر الجاهلي (التسجيلات الصوتية)؛ وذلك لضبط النطق لدى الدارسين، ولتعتاد آذانهم سماع لغة القوم، فتغدو مألوفة مأنوسة غير مستهجنة، وهذا من أنفع الوسائل التي تساعد على إفادة الناشئة بالقصائد المشتملة على مهجور الكلم كالذي نشهده بكثرة في شعر الصعاليك، فالسماع المتكرر من المحتوى المسجل في تلك الحال يكون أجدى مما لو اكتفى الأستاذ بإلقاء القصيدة مرة أو مرات معدودات؛ وآية ذلك أننا كثيرا ما نشاهد شبابا يرددون أغاني أجنبية دون فهم معناها لمجرد سماعهم لها مسجلة مرارا وتكرارا.

ولتكون التسـجيلات الصـوتية جاذبة ومحببة لابد فيها من مراعاة (الإلقاء المعبر والأداء المصور للمعاني)، والأداء يكون بحسـب طبيعة الأشـعار المدروسـة، فمن الأشـعار ما يناسـبه الأداء التأملي المتئد، ومن التجارب ما يغري بالغناء والإنشـاد، وآلية الإلقاء هذه في غاية الأهمية أيضـا في أثناء المحاضـرة؛ فكم في الإلقاء المعبر من جلال وجمال، وكم من المعاني لا يتضـح إلا بنبرة صـوت، أو

(١) ينظر: الزَّوْزَني، شرح المعلقات السبع، ص٩٣- ١٠٣.

إشـارة يد، أو تعابير وجه أثناء القراءة للشـعر، أما القراءة الباردة فتصـيب المتلقي بالفتور والملل، بل والنفور.

ومن وسـائل التبليغ المجدية في تقريب وتحبيب مضـامين الشـعر الجاهلي للشـباب **(الأعمال الدرامية والأفلام الوثائقية ذاتُ التعلق بالبادية)** فذلك مما بات ميسورا بل ومطلوبا في عصرنا الحاضر، فتجربة الرحلة- مثلا- التي يصورها زهير في معلقته، وتجارب الكر والفر، والطراد والصيد، والمواسم والأسـواق، ونحو ذلك من موضـوعات ومشـاهد الشـعر الجاهلي لا يسـتشـعرها المتلقي بقوة إلا بالتوظيف الجيد والمدروس للدراما البدوية والأفلام الوثائقية والتاريخية.

ومن أجدى الوسائل فاعلية في تقريب الشعر الجاهلي **(انتقاء التجارب القصصية)**؛ فمعلوم أن للنفس بالقصص شغف وتعلق، " وكثيرة هي أشعار الجاهلية التي تصحبها أحداث وقصص مشوقة مثيرة "[1]، وقديما استعان الأسلاف بقالب القصة في فن المقامة لتلقين الناشئة غرائب اللغة؛ فلو اعتنينا بتوظيف القصة في تذليل المنتج الشعري الجاهلي وتذليل صعابه لجاد ذلك وأفاد، فمعلقة عمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، والنابغة، وزهير، وكثير من قصائد الأعشى، وشعراء الصعلكة، والصيد كلها تقترن بأقاصيص وأحداث تسهم في الجذب والتشويق أيما إسهام.

أيضـا من طرائق التبليغ الجديرة بالاهتمام **(إدراج ملحق معجمي بمقررات الأدب الجاهلي)** يعنى ببيان غرائب اللغة ومفرداتها المهجورة والمجهولة لدينا في الغالب؛ لتكون معوانا على إنارة النص وكشـف شيء من فحواه للدارسين.

كذلك مما يجب اتباعه في تبليغ الشعر الجاهلي **(إسقاط الماضي على الحاضر، والحاضر على الماضي)** سـعيًا لتقريب المحتوى المغرق في القدم، والإفادة من تجارب الماضـين في تفهم الواقع، واسـتشـراف المستقبل بصورة أمثل، كتجربة النابغة ولجوئه السياسي لدى الغساسنة، ومنادمته للنعمان، وكشهرة الأعشـى حتى لدى الفرس بأنه صـناجة العرب ومضـاهاة ذلك بحال المشـاهير من الفنانين ونحوهم،

(١) ينظر: محمد ناجح محمد حسن، الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي، ص ٢٣٠.

ومن إسقاط الحاضر على الماضي أن نتفهم قضية بكاء الأطلال والإشادة اللافتة بذكرها عندما نقيس ذلك بحالنا إذا ما فارقنا مسكنا ألفناه، أو أجبرنا على مغادرة دار نزلنا بها، ولو نظرنا إلى حال المهجرين بفعل الكوارث والحروب وهم لا يكادون يملون من الحديث عما خلفوه ببلادهم من الديار والذكريات لعلمنا كم كان الوقوف بالأطلال في الشعر الجاهلي حدثا جللا يستدعي التوقف والعناية، وكم هي تجربة حقيقية جادة لا مجرد تقليد مفتعل كما يتوهم الكثيرون.

أيضا مما يذلل صعاب شعر الجاهلية **(استنباط الدروس الحيوية من تجاربه)** فمثلا في ذكر حاتم الطائي، وهرم بن سنان، والحارث بن عوف، وعنترة، وعروة بن الورد وغيرهم ممن بقيت سيرهم بالكرم والنبل مشهورة حتى يوم الناس هذا، رغم كفرهم، في ذلك آية دالة على أن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا، وأن ذلك مما قدره الله لهم من الأجر الحسن في الدنيا على جميل ما صنعوا؛ وكذلك شعر الحكمة والوصايا والفروسية، وغيرها من موضوعاته الشعرية المشتملة على هموم شبابية، وقيم، وخبرات معيشية، فمثل هذه الاستنباطات تجعل من درس الشعر الجاهلي درسا حيويا محببا.

ثانيا: تفعيل أنشطة شبابية وتحفيزية

تدريس الشعر الجاهلي لا يكاد الشباب يسيغه إلا بعد تفعيل أنشطة شبابية وأساليب تحفيزية تبعث على المشاركة والتجاوب، ومن هذه الأنشطة على سبيل المثال:

- **توظيف التمثيل**: فلو أننا قمنا بتضمين بعض الأشعار الجاهلية في عروض تمثيلية قصيرة يحضرها الطلاب، وتدار بالفصل في دقائق معدودة من المحاضرة لأدى ذلك إلى ترسيخ المحتوى المراد تدريسه بأسلوب فيه إمتاع وترفيه، وإثارة وجذب.

- **القيام برحلات إلى بيئات مشابهة لبادية العرب**[1]: كشبه جزيرة سيناء، والواحات عندنا في مصر، فزيارة تلك البيئات البدوية ولو مرة بلا ريب تكون أوقع وأنفع من عدد من المحاضرات في وصف واقع البادية، وطبائع أهلها، وحيواتها الخاصة التي لا يمكن لأرباب الحاضرة مجرد تصورها فضلا عن استيعابها والتأثر بها؛ ولنا أن نستشعر كم ستتحول مادة الأدب الجاهلي بهذه الطريقة إلى مادة شبابية

(١) نبه إلى هذا: محمد النويهي، الشعر الجاهلي دراسة منهج في دراسته وتقويمه، جـ١، ص ٣١، ٣٢.

بامتياز.

- **تنظيم مسابقات**: في حفظ محتوى معين من شعر الجاهلية كشعر المعلقات، أو بحث موضوعات وقضايا تتعلق به كالصعلكة، والفروسية، والبكاء على الأطلال، ونحو ذلك لحفز الشباب إلى التعلم الذاتي والقراءة الحرة النهمة.

- **عقد مناظرات فصلية**: بين المتلقين في تفضيل شعر على شعر، وشاعر على آخر، واستفراغ الوسع في بيان أسباب التفضيل.

- **عقد ندوات عن موضوعات معينة**: لاسيما الإشكالات والقضايا الجوهرية التي تحتاج إلى بسط واستفاضة.

فمثل هذه الأنشطة التعليمية وإن بدت ترفيهية في الظاهر لكنها ضرورية لتلقي الشباب لشعر الجاهلية.

ثالثا: معاودة النظر في مناهج الأدب الجاهلي

من أجل تلق أفضل للأدب الجاهلي من قبل الشباب يتوجب على القائمين بتدريسه معاودة النظر في مناهجه؛ لتلافي عوائق التلقي القائمة، وتوظيف آليات التلقي المثلى؛ وكذلك يتوجب في إعداد تلك المناهج مراعاة أمور أهمها:

- **التوازن في محتوى المنهج بين التنظير ومطالعة النصوص**: فمما يلحظ على مقرر الأدب الجاهلي الاهتمام بالتأريخ والتنظير على حساب قراءة نصوص ذلك الأدب قراءة تكسب الدارس ألفة معه، وخبرة به.

- **الاهتمام بحفظ النماذج المثلى والنصوص الروائع**: لاسيما المعلقات؛ لينطبع منوال الشعر الجاهلي في الذهن ويصير تلقيه عفويا وملكة، لا تكلفا وعنتا.

- **تنقيح المناهج من الإشكالات المشوشة**: لاسيما في المراحل الأولى للطلب ريثما يستعذب المتلقي تجارب ذلك الشعر، ويتعاطف معها، ويتعلق بها تعلقا يدفعه للاستزادة من المعرفة.

- **القراءة الحرة، والرجوع إلى المصادر**: لن يدرك المتلقي طبيعة شعر الجاهلية من تلك النتف والمقطعات التي تحويها كتب المقرر، بل لابد من تخصيص قسط من المقرر ينبني على رجوع الدارس ومطالعته

الحرة لمصادر الأدب الجاهلي ودواوينه.

- **مواءمة ميول الدارسين وحالهم:** من فادح الأخطاء ألا نضع في اعتبارنا ونحن نعد مقرر الأدب الجاهلي هوى الدارسين، وتطلعاتهم، وقدراتهم، فالشعر الجاهلي بضاعة إن أحسنا عرضها على الشباب وفق ما يهوون راجت، وإلا كسـدت وباءت بالبوار؛ فعلى القائمين بتدريس الشـعر الجاهلي مراعاة حال المتلقين وميولهم فيما يقررون عليهم من نصوص، فما يروق المراهق قد لا يستهوي الشاب الناضج، وما يتماشـى مع البنين قد لا يتناسـب مع البنات، فالعناية باختيار المادة المدروسـة لها بالغ الأثر في تكليل عملية التلقي بالنجاح المأمول.

رابعا: التأويل المنضبط والمنطلق من واقع النص

كيما تكون عملية التلقي للشـعر الجاهلي عملية بناءة لابد وأن تبنى على التأويل المنضـبط بموائمة الواقع واحتمالية الوقوع، والمنطلق من واقع النص، فلا يُتلقى الشـعر الجاهلي معزولا عن واقعه، مجردا من حيثياته، محالا في تصـور حدوثه، مفسـرًا وفقًا لنظريات مجتلبة ومقاييس غريبة عنه؛ حتى لا يغدو النص الجاهلي كلأ مستباحا لكل حدس وتهويم، ولئلا تكون فوضـى التأويل عائقا دون التفهم المنشـود؛ لقد تنادى البنيويون ومن سـار في ركابهم بموت المؤلف، وزعموا أحقيتهم بامتلاك تأويل النص دونما اسـتحضـار لإطاره الزماني أو المكاني، ودونما اعتراف بسـلطة المبدع أو المجتمع الذي تخلق في أجوائه، فاسـتحال التأويل على أيديهم مجرد حدس وتخمين ليس له حد ولا ضـابط، وجعلوا من النص مجرد مادة لغوية يستنطقونها بكل ما جادت به الهواجس وما شاء لهم الهوى، وهذه الطريقة وإن تلاءمت مع بعض النصوص على سبيل التجريب فإنها لا تتلاءم بحال مع شعر الجاهلية؛ إذ ليس شعر الجاهلية كغيره من الشعر حجية وقيمة، " كما أنه بطبيعته ليس لعبا ذاتيا ولا تهويما فردانيا في اللغة، بل هو نتاج فردي ومجتمعي في آن معا "[1]، يحوي شـعور الفرد ورؤاه ملتحمة بقيم الواقع الجاهلي وهموم الحياة؛ إذ هو ديوان العرب الذي أودعوه كل ما حزبهم أمره، وعناهم خلود ذكره؛ فتأويل شـعر الجاهلية معزولا عن بيئته وملابسـات نشـأته أشـبه بعمليات البتر الجراحية التي لا تنتج في

(١) ينظر: عمر بن عبد العزيز السيف، فهم الشعر الجاهلي وتفسيره وتأويله، ص ٣٢٠.

النهاية إلا أشلاء شائهة نافقة تنتظر من يدسها في التراب، وإذا كان الأطباء لا يلجأون لذلك إلا اضطرارا فكيف يُلجأ إليه في مجال النقد اختيارا دون مبرر أو جدوى؟!.

" فتفهم الشعر الجاهلي وتأويله الأمثل لا يتأتى إلا باستظهار قصد الشاعر في ضوء المعطى التاريخي، والواقع البيئي، والمعجم اللغوي، وتفسير الرواة والمحققين، وما يعرف بالأنماط العليا للتفكير والشعور البشري، ولا يفضي الاتكاء على تلك المعطيات إلى تأويل محتوم بعينه، بل يصنع لنا آفاقا للتوقع "[١] يتخذ منها النقاد والدارسون منارات تهدي إلى التأويل القويم.

وبرهنة على ضرورة الاتكاء في تأويل الشعر الجاهلي على مقاييس نقدية مستقاة من واقع النص لا مجتلبة من خارجه، وتدليلا على تأبيه على التأويل القسري المهوم بعيدًا عن أجوائه أتوقف عند قضية فنية من أبرز قضاياه التي لطالما شغلت النقاد، ألا وهي (غلبة الطابع الحسي على صور الجاهليين وأخيلتهم) كمثال دال على مثالية تلك الطريقة ونجاعتها.

فمن يتأمل أشعار الجاهليين يجدها فيضًا تلقائيًا لإحساسات وانفعالات قوية، ويجد أن جُلَّ تشبيهاتهم واستعاراتهم مُنتَزع من عالم المحسوسات؛ " فالمرأة مثلًا يشبهونها بالشمس، والبدر، والبيضة، والدرّة، والدّمية، والرمح، والسيف، والغمام، والبقرة، والظبية، والقطاة، ويشبهون أسنانها بالأُقْحُوان[٢]، وَبَنَانَها بِالعَنَم[٣]، وثغرها بالبِلَّور[٤]، وخدها وترائبها بالمرآة، وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد، ووجهها بالدينار، ورائحتها بالمسك وبالأُتْرُجَّةِ، وريقها بالخمر وبالعسل، وعينها بعين بقرة الوحش والغزال، وعَجُزَهَا بِكَثِيْبِ الرمل.

أما الرجل فيشبّهونه بالبحر، وبالغيث، وبالأسد، وبالذئب، وبالعقاب، وبالبعير، وبالبدر والقمر، وبالرمح، والسيف، وبالتيس، والضبع، والكلب والحمار، والفحل، والصقر، وبالأفعوان

(١) ينظر: المرجع السابق، ص ٣٢٠- ٣٢٣.

(٢) الأُقْحُوَان: نَبْت البَابُونْجُ، له زهر أبيض ناصع، تُشَبَّهُ بِهِ الأَسنان.

(٣) العَنَمُ شَجَرَةٌ صَغِيرَةٌ خَضْرَاءُ لَهَا زَهْر شَدِيدُ الحُمْرَةِ، يُشَبَّه بِهَا البَنان المَخْضُوبُ.

(٤) الحِجارة البِيضُ الَّتِي تَبْرُق.

والحية، وبالصـخرة "[1]، ونجدهم يهتمون بتلوين المشـاهد، ورسـمها حافلة بالحركة ليزداد وقعها على الحِسِّ.

فعلى هذا النحو الـمُغْرِق في الحسية تأتي صور الشعر الجاهلي؛ وقد يتراءى للبعض أن الإيغال في الحسـية على هذا النحو يُنْقِص من قيمته الفنية بحجة أن الشـعر والفن عمومًا ليس إلا محاولة للانعتاق من عالم المحسـوسـات المحدود والانطلاق نحو آفاق الروح الرحيبة، إذن فعنايته يجب أن تكون في التعبير عن روح الأشياء وجوهرها وليس في رسم شكلها وتَحَسُّسِ مظهرها.

وهذه نظرة غير دقيقة في تقييم شعر الجاهلية، وذلك لأن الصور والأخيلة الحسية ليست بمرذولة على الإطلاق، وكذا الصـور التجريدية ليسـت بمُسـتملحة على الإطلاق، وإنما لكل منهما موضـع يناسـبه، وظروف تلائمه، ولكل مقام مقال؛ بدليل أن الشـعر الحديث لما أسـرف شـعراؤه في التجريد، والترفع الجمالي، والتحليق في سـماوات ما وراء المحسـوس، وتحول على أيديهم إلى ما يشـبه الطلاسم الـمُحجَّبة، والشفرات المجهولة المبهمة، تَنَادَى كَثْرَةٌ من النقاد بضرورة العودة إلى الانفعال الـمُفعَم بإحساسات الجسد، ومنحها حظًا من التقدير والاهتمام.

فلننظر إذن إلى صـور الجاهليين وأخيلتهم في إطار عصـرهم وظروف بيئتهم لنتبين إلى أي مدى جاءت تلك الصور الحسية مناسبة لحالهم، مُلبية لـمُبتغاهم.

ولو أنصفنا لقلنا بأن التصور والإدراك الحسي للأشياء يكون سائدًا ومسيطرًا في عصور البداوة ومجتمعاتها، فالبدائيون قَلَّما يؤمنون بغير ما يحسـون؛ ومن ثَمَّ اتخذوا الأصـنام والأوثان آلهة من دون الله- سـبحانه وتعالى- اسـتجابة منهم لنزوعهم نحو الحسـية الـمُغرقة في كل شـيء، لأنهم في طور اسـتكشـاف الجديد والمزيد من الأشـياء كل يوم، فهذه المحسـوسـات بالنسـبة لهم تكون جديدة في نظرهم بِكْرًا غير مُستهلكة في تصورهم، فيحفلون بها ويحتفون؛ فإذا ما ترقى الإنسان في سُلَّم التحضر والمدنية بدت تلك المحسـوسـات في نظره لطول إِلْفِه لها، وتعوده عليها مسـتهلكة مبتذلة لا تثير فيه دهشـة ولا عَجَبًا؛ وعندئذ يلجأُ الفنانون والشـعراء إلى الصـور التجريدية المحلقة للإبقاء على فاعلية

(١) ينظر: شوقي ضيف، العصر الجاهلي، ص٢٢٠، ٢٢١.

الفن وجِدَّتِه وقوة تأثيره.

" والشـــعر الجاهلي وإن كان محدودًا بحدود عالم الحواس؛ إلا أنه دقيق في رؤيته لهذا العالم، شـــديد الانفعال بحيويته، نابض بروحه، زاخر باهتماماته، مشـــحون بآلامه ولذاته، مُتفنن في تصـــويره والإعراب عنه، لا يتوقف في نقله له عند مجرد التسـجيل الحرفي والتقرير الجاف، وإنما ينقله مُضَـمَّخًا بنداوة الشعور، ودفء العاطفة، وروح الـــمِزاج؛ فيحملنا على التفاعل معه بكافة أحاسيسنا من سمع، وبصـــر، وذوق، وشَـــمٍّ، ولمس، وينفذ إلى صـــميم كياننا فيهزه هزًّا، ويمنحنا رهافة حس وجِدَّة إدراك للموجودات ""(١).

إذن فالجودة الفنية للصور الشعرية لا تكمن في كونها حسية أو تجريدية بل في حيويتها وبكارتها؛ فعلى هذا النحو من التأويل المنضبط والمنطلق من واقع النص يتأتى تلقي شعر الجاهلية والانتفاع به.

(١) ينظر: محمد النويهي، الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه، جـ ١، ص٣٩١- ٣٩٨.

الخاتمة

وختامًا لبحثي حول (التَّلَقِّي الشَّـبَابِيّ لِلشِّـعرِ الجَاهِلِيّ) أوجز ما توصـلت إليه من نتائج، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً - فيما يتعلق بواقع التلقي الشَّبَابِيّ لِلشِّعرِ الجَاهِلِيّ:

من يعاني تدريس الشعر الجاهلي يلمس عزوفا من قبل الشباب عن دراسته، وصدودا ممضا عن تفهم أجوائه، والانفعال بمعانيه، بل وعجز مزريا عن مجرد قراءة أبياته قراءة صـحيحة معبرة، الأمر الذي يوجب على الباحثين والمؤسـسـات المعنية بذل مزيد من الجهود لدراسـة الأسـباب الكامنة والعوائق الماثلة وراء ذلك العزوف، وإيجاد حلول مسـاعدة ووسـائل مثلى؛ لتذليل صـعابه، وتمكين شبابنا من تلقيه بشغف وحرص يليقان بما له من مكانة وقيمة؛ إذ إن في التغافل عن ذلك العزوف إهدارٌ لإرث أمتنا الحضاري، مما يجعلُنا أمةً مَبْتُوتَةً عن ماضيها، كَلَّةً على غيرها في الحاضر والمستقبل.

فمما لا يخفى أن الشباب هم صناع المستقبل الناهض المنشود، وفترة الشباب هي الفترة المثلى للتلقي والتأديب؛ وأن أدب الجاهلية يُمَثِّل المرجعية اللغوية للشـرع؛ وبدونه تغدو نصـوص الشـريعة كالطلاسـم معتمةَ الدلالةِ غامضـةَ المفهوم، مما يُحْدِثُ قطيعةً بين الأمة ومصـدر هدايتها؛ فَتَفْقِد سِرَّ خَيريتِها، وتذهب هُوِيَّتُها أَدراجَ الرياح.

كما أن أدب الجاهلية هو أُسُّ أدبِ العربيةِ التَّليد، الذي مهما طال بأدبنا الأَمَد، ومهما تنازعته صيحاتُ التطوير والتجديد فلن يبرح أرضَهُ ولن يحيد؛ فلا يمكن للشباب تفهم أدب العربية في مختلف عصـوره إلا بتفهم أدب الجاهلية، فهو المرجعية المعتمدة لأدبنا العربي حتى في أعنف صـيحات حداثته.

إذن الأمر خطير جلل ويتطلب منا يقظة وجهدا منظما مدروسا، فنحن بدراستنا للشعر الجاهلي لا نتعب أنفسـنا عبثًا في نصـوص عتيقة، عديمة الجدوى، كما يتوهم البعض، وإنما ندرس أدبًا أصـيلا يمنحنا نهضة تليق بنا، واعتزازًا بكينونتنا، وتمسكًا بهُوِيَّتِنا، وتفهمًا لطبيعة الحياة والأحياء من حولنا.

ثانيًا- فيما يتعلق بعوائق التلقي الشَّبَابِيّ لِلشِّعرِ الجَاهِلِيّ:

تتمثل عوائق تلقي الشباب للشعر الجاهلي في الآتي:

(أ) **عوائق تتعلق بالمتلقين** من الناشئة **كالعزوف عن دراسته** لأسباب أهمها: (أزمة القراءة والاطلاع، والجهل بفائدة الأدب الجاهلي، وتوهم عدم جدواه، وضغوط العصر وتحولاته، والمادية الطاغية)، كذلك من العوائق **عدم امتلاك كثير منهم أدوات التلقي** من حصيلة لغوية تسعف في فهم المعاني، ومحفوظ شعري يمكن من التعليق وإبداء الرأي، وإلمام بالواقع التاريخي والبيئي لعرب الجاهلية تتضح به المقاصد والأفكار، ولا ريب أن هذا كله مما يعز وجوده ويتعذر؛ لكن وإن ساغ لنا بحال التغاضي عن توفر تلك الأدوات السابق ذكرها رضوخا منا للأمر الواقع، ومسايرة منا لتدني المستوى التعليمي والتثقيفي بمراحل ما قبل التعليم الجامعي فإنه لا يسوغ لنا بحال من الأحوال التغاضي عن امتلاك الدارسين مهارات الكتابة والقراءة، فما أكثر ما يتلجلج دارسو شعر الجاهلية في قراءة نصوصه، وينتابهم شعور بالحيرة والعجز عن النطق الصحيح لكثير من مفرداته وتراكيبه؛ وسعيًا لتحقيق ذلك القدر اليسير من أدوات التلقي يجدر بالكليات والأقسام التي تدرس الأدب أن تعقد للمتقدمين إليها من الطلاب اختبار قبول يعنى بالتحقق من إجادة أولئك المتقدمين من مهارات القراءة والكتابة، وهذا المطلب وإن كان مثيرا لدهشة البعض واستنكاره إلا أن من عاين الواقع عرف كم هو هام ومُلِح.

(ب) **عوائق تتعلق بعملية التبليغ والتوصيل**، ومنها: **القصور البين في تبليغ الشعر الجاهلي والتأريخ له ونقده، ودرس قضاياه**؛ فإلى الآن لا زال شعر الجاهلية مجهولا في معظم مناحيه، ولا زالت طرق تدريسه مفتقرة إلى التحديث المواكب لمستجدات العرض الفعال؛ ومنها: **ما يثار حوله من الشبهات، ومزاعم التهوين، وما يتخلل تاريخه من أغاليط كثر**، فكل أولئك يمثل عائقا عن التلقي الجاد، وصارفا للكثيرين عن الاهتمام المنشود.

(جـ) **عوائق تتعلق بالنص الشعري الجاهلي**، من أهمها: (كثرة الإشكالات المتعلقة به، واشتماله على بعض ما يَغْمُضُ فهمُه، وخفاء الترابط بين أبياته وموضوعاته).

ثالثًا- فيما يتعلق بالطرائق المثلى لتلقي الشَّبَابِ لِلشِّعرِ الجَاهِلِيّ:

أما عن الطرائق التي أراها هامة وفارقة في تلقي الشباب للشعر الجاهلي **فمنها ما يرتبط بالمتلقي**، كـ (التأهيل النفسي، والتثقيف المتدرج والواسع، والتقمص الشعوري والتماهي العاطفي مع تجارب ذلك الشعر)، **ومنها ما يرتبط بعملية التبليغ**، ويتمثل ذلك في عدة أمور، هي:

(أ) **مواكبة مستجدات العرض الفعال**، كـ (إدراج صور وخرائط توضيحية، وتوظيف للتسجيلات الصوتية، ومراعاة الإلقاء المعبر والأداء المصور للمعاني، والاستفادة من الأعمال الدرامية والأفلام الوثائقية ذات التعلق بالبادية، وانتقاء التجارب القصصية، وإدراج ملحق معجمي لغريب اللغة ومهجورها، وإسقاط الماضي على الحاضر، والحاضر على الماضي، واستنباط الدروس الحيوية من تجاربه).

(ب) **تفعيل أنشطة شبابية وتحفيزية**، ومن هذه الأنشطة على سبيل المثال: (توظيف العروض التمثيلية، والقيام برحلات إلى بيئات مشابهة لبادية العرب، وتنظيم مسابقات، وعقد مناظرات وندوات عن موضوعات معينة).

(ج ـ) **معاودة النظر في مناهج الأدب الجاهلي**؛ لتلافي عوائق التلقي القائمة، وتوظيف آليات التلقي المثلى؛ ولمراعاة أمور أهمها: (التوازن في محتوى المنهج بين التنظير ومطالعة النصوص، والاهتمام بحفظ النماذج المثلى والنصوص الروائع، وتنقيح المناهج من الإشكالات المشوشة، والاهتمام بالقراءة الحرة، والرجوع إلى المصادر، ومواءمة ميول الدارسين وحالهم).

(د) **التأويل المنضبط بموائمة الواقع واحتمالية الوقوع، والمنطلق من واقع النص**؛ حتى لا يغدو النص كلأ مستباحا لكل حدس وتهويم، ولئلا تكون فوضى التأويل عائقا دون التفهم والتلقي النافع البناء.

فهرست المصادر والمراجع[1]

أولاً: الدواوين والمجاميع الشعرية

- الأصمعي: الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر - عبد السلام محمد هارون، دار المعارف - مصر، الطبعة السابعة، ١٩٩٣م.
- أوس بن حجر: الديوان، تحقيق وشرح: محمد يوسف نجم، دار بيروت- لبنان، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠م.
- امْرُؤُ القَيْس بن حجر الكندي، (ت ٥٤٥ م)، ديوان امرِئ القيس، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م.
- البحتري: الديوان، بشرح وتحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف، الطبعة الثالثة.
- الزَّوْزَني، حسين بن أحمد بن حسين (ت ٤٨٦هـ)، شرح المعلقات السبع، دار احياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢ م.
- أبو زيد القرشي (المتوفى: ١٧٠هـ)، جمهرة أشعار العرب، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
- عدي بن زيد العبادي: الديوان، حققه وجمعه محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للطبع والنشر - بغداد، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- المفضل بن محمد الضبي (المتوفى نحو ١٦٨ هـ)، المفضليات، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف - القاهرة، الطبعة: السادسة.

(١) سأقوم بترتيب المصادر والمراجع وفقًا للخطوات التالية:

- أعتمد في سرد المراجع على الترتيب الهجائي.
- أبتدأ بذكر اسم المؤلف ثم أتبعه بذكر المرجع أو المراجع إن كان له أكثر من مرجع.
- أبتدأ بذكر اللقب المشهور للمؤلف إن وجِد، ثم أُثني بذكر اسمه تتمةً للإيضاح.
- لا أعتدُّ في الترتيب بحروف كلٍّ من: (أل/ أب/ ابن/ بنت/ أ. د).

ثانياً: الكتب العربية المطبوعة

- جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مراجعة وتعليق شوقي ضيف، دار الهلال.
- جواد علي (ت ١٤٠٨ هـــ)، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الساقي، الطبعة: الرابعة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
- حسن توفيق العدل، تاريخ آداب اللغة العربية، عُني بتحقيقه (محمود وليد خالص)، الدكتور بكلية الآداب جامعة الملك قابوس بعمان، ونشرته دار أسامة، الأردن، عمان، ٢٠٠٢م.
- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق وتعليق: عبد الله محمد الدرويش، ط ا، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م، دار يعرب.
- ابن رشيق، أبو على الحسن القيرواني الأزدي (ت ٤٦٣ هـــ): العمدة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١م.
- شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف، ط ٢٤، ٢٠٠٣م.
- عبد الرحمن بدوي، ترجمة: (دراسات المستشرقين حول صحة الشعر الجاهلي)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.
- عفيف عبد الرحمن، مكتبة العصر الجاهلي وأدبه، دار الأندلس، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.
- عمر بن عبد العزيز السيف، فهم الشعر الجاهلي وتفسيره وتأويله، بحث بالمجلد السادس من العدد الثاني والثلاثين لحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالأسكندرية.
- عمرو بن بحر الجاحظ، رسائل الجاحظ، بتحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م.
- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، بتصحيح الشيخ أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم بشارع محمد علي بمصر/ وكذلك دار الفكر - بيروت، الطبعة الثانية، بتحقيق: سمير جابر.
- ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ ه.

- محمد بن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر.
- محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الجيل- بيروت، ط الأولى، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م.
- محمد لطفي جمعة، الشهاب الراصد، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- محمد النويهي:

- الشعر الجاهلي دراسة منهج في دراسته وتقويمه، جـ ١، الدار القومية للطباعة والنشر.
- ثقافة الناقد الأدبي، الطبعة الأولى، ١٩٤٩م، لجنة الترجمة والتأليف والنشر، القاهرة.

- المرزباني، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى (ت ٣٨٤هـ)، الموشح، عنيت بنشره جمعية نشر الكتب العربية، المطبعة السلفية، ١٣٤٣هـ.
- مريم حمزة، غموض الشعر ومصاعب التلقي، مؤسسة الرحاب الحديثة، بيروت- لبنان.
- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.
- أد مصطفى عبد الرحمن إبراهيم، الأدب العربي في العصر الجاهلي، الطبعة الأولى، ١٤٣٩هـ/ ٢٠١٧م.
- ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، بتحقيق علي عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، دون تاريخ/ وكذلك دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.
- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، بتحقيق إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

ثالثًا: الرسائل العلمية:

- حورية عيسى، الخطاب الأدبي في التراث العربي بين تقنية التبليغ وآلية التلقي، رسالة دكتوراه بجامعة وهران بالجزائر، كلية اللغات والآداب والفنون، ٢٠١٥- ٢٠١٦.
- محمد ناجح محمد حسن، الإبداع والتلقي في الشعر الجاهلي، رسالة ماجستير، بكلية الدراسات

العليا، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين.

- نجوى عبد العزيز عبد السلام بناني، أشهر الردود على كتاب في الشعر الجاهلي لطه حسين، دراسة نقدية تحليلية، رسالة ماجستير بكلية اللغة العربية، بجامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

رابعًا: المقالات

- محمد عبد المنعم خفاجي، مقال بعنوان: دفاع عن الشعر الجاهلي، مجلة الرسالة/ العدد ٨٨٩.

فهرس الموضوعات

المحتويات

الملخـــص..... ٨٢٧
المقدمـــة..... ٨٢٩
ا لتمهيد..... ٨٣٢
المبحث الأول: عوائق التلقي الـمَاثِلة ٨٣٤
المطلب الأول- عوائق تتعلق بالمنتج الشعري الجاهلي..... ٨٣٤
المطلب الثاني- عوائق تتعلق بعملية التبليغ..... ٨٤٠
المطلب الثالث- عوائق تتعلق بالمتلقين..... ٨٥٤
المبحث الثاني: طرائق التلقي الـمُثْلَى..... ٨٥٨
المطلب الأول- طرائق تتعلق بالمتلقي..... ٨٥٨
المطلب الثاني- طرائق تتعلق بعملية التبليغ ٨٦٥
الخاتمة..... ٨٧٤
فهرست المصادر والمراجع ٨٧٧
فهرس الموضوعات..... ٨٨١